وما أدراك ما علي

القسم الثالث

الزهراء في بيت علي

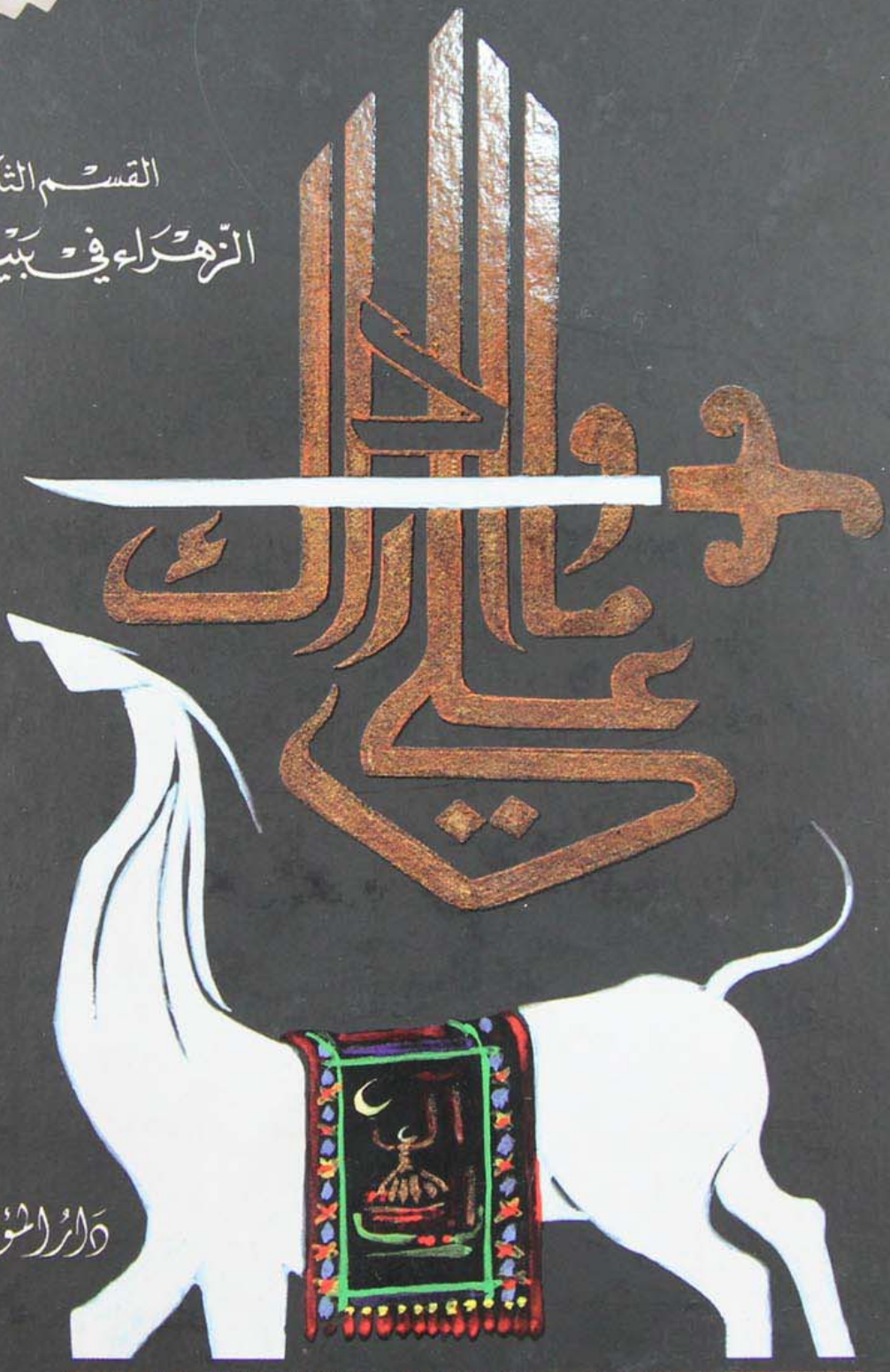

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

دار المؤرخ العربي

www.haydarya.com

وما أدراك ما علي

القسم الثالث

الزهراء في بيت علي

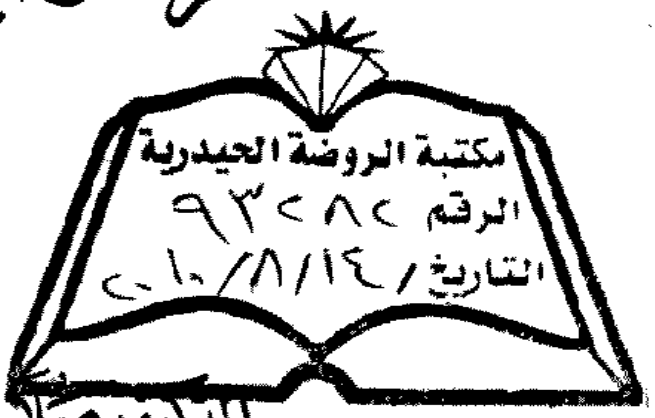
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٩٣٢٨٢
التاريخ ١٤/٨/٢٠١٠

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حُقُوق الطّبع محفُوظة

الطّبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان - ص.ب ١٢٤/ ٢٤ - تلفاكس ٥٤٤٨٠٥

Email: al_mouarekh@hotmail.com

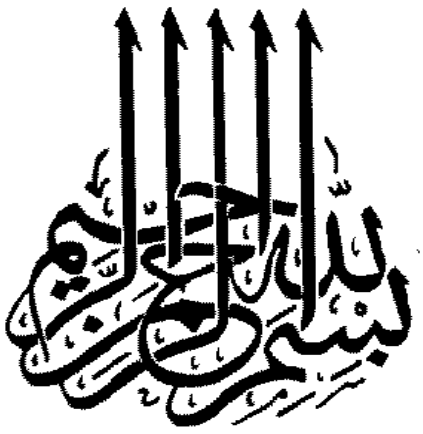
بسم الله الرحمن الرحيم

الإخراج الفنّي: علي محمد جواد الطريحي

تصميم الغلاف: الفنان سلمان البصري

النجف الأشرف

المقدمة

الزهراء عليها السلام غرس ما بارك الله غرسًا كما باركه في محكم كتابه، انفردت بين النساء بكل المجد والسؤدد والمكانة الرفيعة والمنزلة السامية عند الله، فسلام عليها أم أبيها الصديقة الطاهرة الزكية التي أبقاها الله لرسوله صلى الله عليه وآله من دون أبنائه لتكون وعاءً لنسله الشريف، الذي انتشر في آفاق الدنيا من مشارق الأرض إلى مغاربها، وذهب الأبتر إلى حيث ذهب من لعنة الله والملائكة أجمعين، ليس له من الذكر إلاّ وصمة الخزي الخالدة التي وصمه الله بها في محكم كتابه حيث قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَر﴾، فسبحانه أصدق القائلين.

وامرأة ببهائها خصها سبحانه وتعالى بأوسمة الخلود والرفعة التي أسهبت بذكرهما روايات المحدّثين والإخباريين، وحازت من المكانة ما لا تستطيع أن تزاحمها فيها واحدة من النساء، لابد أن يصاحب ميلادها وزواجها ورحيلها من الروايات ما يدعو إلى النظر بعد أن فعلت الأهواء بها ما فعلت حتى بات من الصعب على أمهر العلماء والباحثين عزل الغث من السمين فيها، ولاسيما التي دار منها حول عمرها الشريف، أو حول موضعها بين أخوتها، أو حول طفولتها وهجرتها، أو حول علاقتها بزوجها، أو حول رحيلها والمكان الذي اختاره الإمام المرتضى عليه السلام لرقدتها الأخيرة.

لقد مرَّت الدراسة على تلك المحاور خاصَّة، وتأملتها بعمق ورويَّة في محاولة لرفع الأذى الذي شوه بعض جوانبها، والغموض الذي أحاط بها، وتسليط مزيد من الضوء على العتمة التي غمرتها.

وحاولتُ وسط أمواج الوهج العاطفي، والولاء العقائدي الابتعاد ما أمكن عن كل التداخلات التي تبعد الباحث عن المنهج العلمي في البحث والتقصّي لمعرفة الحقائق كما هي.

وحينما كانت العتمة تزداد إظلامًا في بعض الجوانب كنت أحاول إنعام النظر في المتاح من الروايات التي وقفت عليها لتشوّف الطريق إلى الواقع بالصورة التي تقترب منه، ولم أستطع منع نفسي أحيانًا من التحليق في أجواء البتول الروحانية العبقة عليها السلام التي أهّلتها لتلك المنزلة.

وكانت هذه الدراسة في الأصل من مباحث القسم الأول في كتابنا "وما أدراك ما علي" إذ إن الكتاب لا يكتمل إلاّ بها، وقد حاولت جهدي فيها أن أقتطف لمحات من العلاقة السامية بين أمير المؤمنين والزهراء سلام الله عليهما التي كانت بعض صفحاتها دروسًا للتربية الإسلامية التي ينبغي على البيت المسلم الاقتداء بنهجها، ويتحلّى بها، وعلى الرغم من الإيجاز الشديد الذي تناولت فيه الموضوع، فإنه تجاوز الحجم الذي قدرته، ودخلت فيه مباحث رأيتها في غاية الأهمية، وأظنها قدّمت اجتهادًا جديرًا بالنظر، وخاصّة ما يتعلق منها بفرية خطبة الإمام عليه السلام لابنة أبي جهل، وما دار حولها من روايات روجتها الفئة الباغية التي حرصت على أن تشوب تلك العلاقة الشوائب، وتكدرها المكدّرات، وما يتعلّق بموضع قبرها عليها السلام الذي اكتنفه غموض شديد، وغيرها من الموضوعات التي رأيتها جديرة بإعادة النظر، وقد دفعني كل ذلك إلى عرض حيرتي على أحد العلماء الأعلام، وهو ممن لا أتهم مودّته، وأجل رأيه، فنصحني بإفراد البحث في كتاب مستقلٍ يرتبط في مباحثه بكتاب الإمام عليه السلام ويكمله، وقد رأيتها نصيحة جديرة أن آخذ بها.

وإذا كانت هذه المحاولة لا تتناسب مع عظمة الزهراء وسيرتها ومكانتها، وسمو العلاقة التي ربطتها بأبيها وزوجها صلوات الله وسلامه عليهم، فأية دراسة تتناسب مع هذا المقام العظيم! وعلى الرغم من إيجازها الشديد، فإن ما استغرقته من وقت في متابعة الأخبار ونقدها والموازنة بينها لا يتناسب مع عدد صفحاتها، وقد تكون من بعد جديرة بالنظر والقراءة المتأنّية بسبب ما قدمته في بعض مفاصلها من رؤى، ولعلَّ الله يمنح فسحة أخرى أستكمل فيها عدَّتي للإبحار في رحاب سيِّدة النساء.

التمهيد
الفضله بين أخواتها

على الرغم من ازدحام كتب السيرة والحديث والطبقات بأخبار البيت النبوي الشريف، فإنه ليس من السهل الدخول إلى الفضائه لمعرفة عدد أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة رضوان الله عليها، وتعيين من ولد منهم قبل الدعوة وبعدها، بسبب ما حدث في أخباره بسبب تأخر التدوين إلى ما يقارب القرنين من الزمان لأسباب ألمحنا إليها في غير موضع من كتابنا (وما أدراك ما علي) بجزأيه الأول والثاني، وإذا كانت الروايات قد اختلفت وتباينت في غالب أحداث عصري النبوة والخلافة، فمن الطبيعي أن تختلف أشد الاختلاف في عصر ما قبل الدعوة أو بعدها بسنيات حول هذا الموضوع كما اختلفت حول غيره، وقد اتفقت على أنه لم يرزق من غيرها إلاّ بإبراهيم عليه السلام فإنه من مارية القبطية. بل وصل الأمر في بعضها إلى نسبة رقية وزينب من بناته إلى خديجة مرَّة من زوج سابق أو أسبق، أو إلى ضرَّة أختها هالة، وعلى الرغم من أن مثل هذه الروايات عُدَّت من الشاذ، فإن من الضروري الوقوف عليها للنظر فيها.

وعلى الرغم من أنَّ البحث يتناول علاقة الزهراء بزوجها المرتضى سلام الله عليهما، فإنه يقتضي الوقوف على حقيقة موقعها بين أبناء النبي صلى الله عليه وسلم، وزمان ولادتها لتقدير عمرها الشريف يوم زواجها، أو يوم رحيلها، وذلك بسبب تفاوت الروايات في تقديرهما تفاوتًا يدعو إلى النظر،

كما يقتضي أيضًا معرفة الظروف التي أهلتها لاحتلال تلك المنزلة السامية بين نساء العالمين.

ومن تلك الروايات التي تعرضت لذكر عدد أبنائه صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة رضوان الله عليها مثلاً ما رواه ابن عساكر في تاريخه ١٢٨/٣ بسنده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس، وتذهب إلى أنها أنجبت منه عشرة أبناء، هم: عبد الله، وزينب، ورقية، والقاسم، والطاهر، والمطهر، والطيب، والمطيب، وأم كلثوم، وفاطمة، وهي أصغرهم، وقد ذكر هذه الرواية أيضًا ابن كثير في البداية والنهاية ٣٢٨/٥، إلا أن روايته لا تلتقي مع غيرها في عدد أبنائه منها، ويبدو أنَّ الأمر قد اختلط إما على مهران، أو على من روى عنه، ويؤكد ذلك أنَّ عبد الله الذي ذكرت كثير من الروايات أن ولادته كانت بعد البعثة لُقِّبَ أو سمِّي بالطيب والطاهر، ولا يمنع أن اسمي المطيَّب والمطهَّر قد التبسا باسمي الطيِّب والطاهر، وقد يرجِّح هذا الاجتهاد ما جاء في رواية المسعودي التي سنأتي على ذكرها حول أولاده صلوات الله وسلامه عليه التي ذكر فيها أن الطيب والطاهر هما اسمان لعبد الله، وإذا كنَّا لا نشكُّ بما يروى عن ميمون، ولا سيما بعد ما جاء في كتاب نقد الرجال للتفريشي ٤٤٨/٤ من أنه من خواص الإمام علي عليه السلام، فإن من الصعب أن نأخذ بكل ما يروى عنه أو عن غيره ممن لا يراودنا الشك في رواياتهم من دون فحص رجال السند وتمحيصهم.

وإذا كان ميمون قد روى تلك الرواية عن ابن عباس فإن الحاكم في مستدركه ١٨٢/٣ روى عن ابن عباس أيضًا رواية تخالف روايته في عدد أولاده صلوات الله وسلامه عليه، وتتفق مع كثير غيرها، فقد ذكر أن

خديجة رضوان الله عليها أنجبت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (غلامين وأربع نسوة).

وأجمل المسعودي في مروجه ٢٩٨/٢ الحديث عن أبنائه منها بقوله : (ولد له صلى الله عليه وسلم القاسم، وبه كان يكنى، وكان أكبر بنيه سنًّا، ورقية وأم كلثوم، وكانتا تحت عتبة وعتيبة ابني أبي لهب عمه فطلقاهما لخبر يطول ذكره، فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة، وزينب، وكانت تحت أبي العاص بن الربيع، وفرق الإسلام بينهما، ثم أسلم فردها عليه ...وولدت من أبي العاص أمامة... وولد له عليه الصلاة والسلام بعد ما بعث عبد الله، وهو الطيب، والطاهر، الثلاثة الأسماء له، لأنه ولد في الإسلام، وفاطمة)، أي أنه يتفق مع الحاكم في عددهم.

وذكر اليعقوبي في تاريخه ٣٤٠/١ أن خديجة رضوان الله عليها (ولدت له قبل أن يبعث القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم، وبعدما بعث عبد الله وهو الطيب والطاهر، لأنه ولد في الإسلام، وفاطمة)، ثم ذكر في ٣٥١/١ أن القاسم توفي وله من العمر أربع سنين، والتحق به أخوه عبد الله بعد شهر قبل أن يفطم، أما إبراهيم فكان من مارية القبطية، أي أنه يتفق مع الروايتين السابقتين في العدد، ويتفق المسعودي معه في أن ولادة الزهراء كانت بعد البعثة، وأنها آخر من أنجبته خديجة من النبي صلوات الله وسلامه عليه، واليعقوبي (ت ٢٩٢هـ)، ومن بعده المسعودي (ت ٣٤٦هـ) هما من أقدم من ذكر أنها أصغر أبنائه من خديجة، وأنَّ ولادتها عليها السلام كانت بعد البعثة وليس قبلها.

وتكاد تجمع روايات علماء أهل البيت على أن الزهراء عليها السلام هي صغرى أبناء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وأنها ولدت بعد المبعث،

أما غيرهم فذهبت روايات بعضهم إلى أنها صغرى أبنائه، وذكر آخرون أنها صغرى بناته من دون تحديد لزمان ولادتها، وذهب فريق آخر إلى أنها صغرى بناته، ولكنها ولدت قبل الدعوة، وذهب بعض الرواة إلى أنها ليست هي الصغرى وإنما أم كلثوم، وقال بعضهم أن الصغرى هي رقية، ولكن رواياتهم كانت موضع نقد ورفض، حتى قيل بوجوب عدم الالتفات إليها كما سيتبين من بعد.

بل إن الروايات لا تتفق على ذكر عبد الله، فبعضها تذكره كما سبقت الملاحظة، وبعضها تذكر مكانه الطيب والطاهر، روى ابن هشام في سيرته ٢٤٥/١ عن ابن إسحاق أن خديجة أنجبت من النبي ثلاثة أولاد وأربع بنات، قال: (فولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم إلاّ إبراهيم، القاسم وبه كان يكنّى والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليهم السلام، قال ابن هشام: أكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم ثم فاطمة)، وهكذا تلاحظ أن العدد قد اختلف عما في الروايات السابقة فهم سبعة في روايته، وقد أسقط اسم عبد الله من بين أبنائه، وجاء باسمي الطاهر والطيب وهما من كنى عبد الله أو من أسمائه في روايات أخر، وذكر أن أولاده جميعهم ماتوا في الجاهلية، وهو قول يخالف الروايات التي ذهبت إلى أن عبد الله ولد في الإسلام، وفرق بين البنين والبنات، ثم رتبهما، وكان ميلاد البتول في آخر قائمة البنات، ولكنه لم يشر إلى زمان ولادتها.

وذكر الطبري في تاريخه ٣٣/٣ أن خديجة ولدت منه ثمانية أبناء أربعة أولاد، وأربع بنات، ووضع الزهراء في آخر ولد رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم فقال: ولدت خديجة لرسول الله ثمانية (القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة)، من دون تحديد لمن ولد منهم قبل الدعوة أو بعدها.

وأيد كونها سلام الله عليها أصغر أبنائه البلاذري في أنسابه ٢/٢٩ -٣٣، أما ابن سعد فروى في طبقاته ١/١٣٣ بسنده عن ابن عباس رواية يفهم منها أنها أكبر من أم كلثوم إذ قال: (كان أول من ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة القاسم، وبه كان يكنّى، ثم ولد له زينب، ثمّ رقيّة، ثمّ فاطمة، ثم أم كلثوم)، ثم أعاد رواية ابن عباس بسندها في ٣/٧، ولكنه قدّم فيها رقيّة على فاطمة سلام الله عليها، وأخّر أم كلثوم فجعل ولادتها قبل فاطمة، والرواية عنه عند ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣٢٨، ثم ذكرهم ابن سعد في الصفحة نفسها بترتيبهم الصحيح ووضع فاطمة في آخر ولد النبي من خديجة صلوات الله وسلامه عليهما، ولكنه لم يذكر إن كانت ولادتها قبل الدعوة أو بعدها.

ولعل خير دليل على بطلان أي خبر يذهب إلى أن رقية أو أم كلثوم أصغر من فاطمة هو أن الروايات التي تطرفت في تقدير عمر الزهراء عليها السلام ذكرت أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين، في وقت ذكرت فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنتيه أم كلثوم ورقية لولدي عمه أبي لهب عتبة وعتيبة، وقد أجبر أبو لهب وزوجته ولديهما على تطليقهما بعد نزول سورة المسد، وقد تزوجهما عثمان بن عفان؛ رقية أولاً، ومن بعد وفاتها تزوج أم كلثوم بقيت عنده رضوان الله عليها حتى توفيت في العام التاسع للهجرة كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/٢٩، والمسعودي في مروجه ٢/٢٩٨ وغيرهما،

وتوثيقًا لذلك فقد نقل المجلسي في بحاره٢٢/١٦٤ عن المسائل السروية للشيخ المفيد قوله: (.. وقد زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنتيه قبل البعثة كافرين كانا يعبدان الأصنام، أحدهما عتبة بن أبي لهب، والآخر العاص بن الربيع، فمات عتبة على الكفر، والآخر العاص بن الربيع، فلما بعث رسول الله فرَّق بينهما وبين ابنتيه فمات عتبة على الكفر، وأسلم أبو العاص، فردَّها عليه بالنكاح الأول ...، وهما اللذان زوجهما عثمان بعد هلاك عتبة، وموت أبي العاص).

وأجمل ابن عبد البر في الاستيعاب ١٨٩٣/٤ الحديث عن أبنائه صلى الله عليه وآله وسلم ووثَّق كون الزهراء سلام الله عليهما أصغر بناته بقوله: (فاطمة بنت رسول الله سيدة نساء العالمين على أبيها وعليها السلام كانت هي وأختها أم كلثوم أصغر بنات رسول الله، وقد اختلف في الصغرى منهما، وقد قيل: إن رقية أصغر منها، وليس ذلك عندي بصحيح، وقد ذكرنا في باب رقية ما تبين به صحة ما ذهبنا إليه في ذلك، ومضى في باب زينب، وباب خديجة من ذلك ما فيه كفاية. وقد اضطرب مصعب والزبير في بنات النبي صلى الله عليه وآله أيتهن أكبر وأصغر اضطرابًا يوجب ألاَّ يلتفت إليه في ذلك، والذي تسكن إليه النفس على ما تواترت عليه الأخبار في ترتيب بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن زينب الأولى، ثم الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة فاطمة الزهراء والله أعلم)، وكان قد ذهب إلى مثل هذا في استيعابه ٥٠/١ أيضًا، وذكر فيه حول ولد رسول الله من الذكور (واختلف في الذكور، فقيل: أربعة: القاسم وعبد الله والطيب والطاهر، وقيل: ثلاثة، ومن قال هذا قال: عبد الله سمي الطيب لأنه ولد في الإسلام،

ومن قال غلامان قال: القاسم؛ وبه كان يكنى، وعبد الله، قيل له الطيب والطاهر لأنه ولد بعد المبعث، ومات القاسم بمكة قبل المبعث).

أما ابن عساكر فقد ذكر في تاريخه ٣/١٢٥ -١٦٠ روايات كثيرة حول عدد أبنائه صلوات الله وسلامه عليه من البنين والبنات، وحول موقع الزهراء عليها السلام بينهم، فذكرتها بعض رواياته في آخر ولده من خديجة، وصرحت أحيانًا في كونها أصغر بناته منها، وذهبت أخرى إلى أن أم كلثوم هي الصغرى بينهن.

واللافت للنظر أن ابن عساكر يأتي أحيانًا بروايات متناقضة عن شخصية واحدة، من مثل ما رواه حول وفاة الزهراء عليها السلام عن عائشة، فمرة يروي عنها أنها ماتت بعد أبيها بشهرين، ومرة يروي عنها أنها ماتت بعده صلوات الله وسلامه عليهما بستة أشهر، ومن مثل ما رواه عن ابن عباس فذكر مرة عنه أن أم كلثوم هي صغرى بناته، وأنها جاءت بعد فاطمة، وذكر في موضع آخر (ثم ولدت فاطمة وكانت أصغرهم، وكانت خديجة إذا ولدت ولدًا دفعته لمن يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها أحد غيرها).

ومما ذكره ابن عساكر في توثيق كونها أصغر أبناء الرسول ما رواه بسنده عن ابن جريج الذي قال: (قال لي غير واحد كانت زينب أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت فاطمة أصغرهنَّ وأحبهنَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ويبدو أن ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣٢٨ - ٣٢٩ ذكر أغلب روايات ابن عساكر، ولكنَّ غالب ما رواه ليس من السهل الاطمئنان إليه، من مثل ما رواه بسنده عن محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز الذي ذكر أن خديجة ولدت من النبي صلوات الله

وسلامه عليه القاسم والطيب والطاهر والمطهر وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم، لأنه من الصعب الأخذ بما يرويه الوليد بسبب ما قيل عن كذبه وتدليسه في ميزان الاعتدال، وتهذيب التهذيب كما ذكر الشيخ محمد حسن المظفر في كتابه الإفصاح ١٢٦/٤ -١٢٧، ومن مثل ما رواه عن أبي بكر الرقّي الذي قال: ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن، والطاهر والمطهر ولدا في بطن.

تلك روايات أهل الحديث التي وقفت عليها، أما روايات علماء أهل البيت فتجد بعضها في بحار المجلسي ٣/١٦، ١٥١/٢٢ -١٦٦، وهي على الشكل الآتي:

- روى في البحار ٣/١٦ بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أن السيدة عائشة عرَّضت بخديجة أثناء مشادة بينها وبين الزهراء عليها السلام فاشتكت إلى أبيها صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «مه يا حميراء، فإن الله تبارك وتعالى بارك في الودود والولود، وإن خديجة رحمها الله ولدت منّي طاهرًا وهو عبد الله، وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب..».

- نقل في ١٥١/٢٢ عن قرب الإسناد للصفار بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام: ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة القاسم، والطاهر، وأم كلثوم، ورقية، وفاطمة، وزينب، وتزوج علي عليه السلام من فاطمة، وتزوج أبو العاص من زينب، (وتزوج عثمان أم كلثوم، ولم يدخل بها حتى هلكت، وزوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكانها رقية).

- ونقل في ٢٢/ ١٥١ -١٥٢عن الخصال للصدوق بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام: ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة القاسم والطاهر، وهو عبد الله، وأم كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة، تزوج علي فاطمة عليهما السلام، وتزوج أبو العاص زينب، (وتزوج عثمان أم كلثوم فماتت ولم يدخل بها، فلمَّا ساروا إلى بدر زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية).

- ونقل في ١٥٢/٢٢عن مناقب ابن شهرآشوب -من دون سند -ولد لرسول الله من خديجة القاسم وعبد الله وهما الطيب والطاهر، وأربع بنات، زينب، ورقية، وأم كلثوم، وهي آمنة، وفاطمة، وهي أم أبيها.

- ونقل في ١٦٤/٢٢ عن الكافي بسنده عن إبان عن أبي بصير، عن أحدهما (عليهما السلام، والمراد الباقر أو الصادق): لما ماتت رقية بنت رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم: الحقي بسلفنا الصالح عثمان بن مضعون وأصحابه..

- ذكر في ١٦٦/٢٢ وقيل: إن الذكور من أولاده ثلاثة، والبنات أربع، أولهن زينب، ثم القاسم، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله، وهو الطيب والطاهر، ويقال: إن أولهم القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

- نقل عن المنتقى: (ولدت خديجة له زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، والقاسم، وبه كان يكنّى، والطاهر والطيب، وهلك هؤلاء الذكور في الجاهلية، وأدركت الإناث الإسلام فأسلمن وهاجرن معه، وقيل: الطاهر والطيب لقبان لعبد الله وولد في الإسلام. قال ابن عباس: أول من ولد من

ولد الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل النبوَّة القاسم، وبه كان يكنَّى، ثم ولد له زينب ثم رقية، ثم فاطمة ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبد الله فسمي الطيب والطاهر..).

تلك أهم الروايات التي وقفنا عليها في البحار، وتلاحظ أن بعض رواياته لم تهتم بذكر أبنائه بحسب أسنانهم، كما أنها لم تعين من ولد منهم قبل البعثة ومن ولد منهم بعدها، ولكنه روى عن خصال الصدوق، ومناقب ابن شهرآشوب أن فاطمة هي الصغرى، وأيد كونها الصغرى برواية لم ينسبها، ثم ذكر أقوالاً لم ينسبها تذهب بعضها إلى أنها هي الصغرى، وأخرى تذهب إلى أن رقيَّة هي الصغرى.

ولكن ما رواه المجلسي ليس كل الروايات، فهناك أخرى نقلها الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ١/٣٣٩ -٣٤٥ أذكر منها رواية عن أصول الكافي، قال: قال الكليني: (ولد له منها قبل مبعثه: القاسم، ورقية وزينب وأم كلثوم، وولد له بعد المبعث: الطيب والطاهر وفاطمة، وروى أيضًا: أنه لم يولد بعد المبعث إلاَّ فاطمة عليها السلام، وأن الطيب والطاهر ولدا قبل مبعثه)، ونقل أيضًا عن أعلام الورى للطبرسي: (فأوَّل ما حملت ولدت عبد الله بن محمد، وهو الطيب الطاهر، والناس يغلطون فيقولون: ولد له منها أربعة بنين القاسم وعبد الله والطيب والطاهر، وإنما ولد له منها ابنان، الثاني: القاسم، وقيل: إن القاسم أكبر، وهو بكره، وبه كان يكنَّى، وأربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة).

- وذكر المجلسي في بحاره ١٥٢/٢٢ رواية بلا سند يكتنفها التشويه وتثير اللبس إذ قال: (في الأنوار والكشف واللمع وكتاب البلاذري -كذا - إن

زينب ورقية كانتا ربيبته -كذا - من جحش، فأما القاسم والطيب فماتا بمكة صغيرين، قال مجاهد: مكث القاسم سبع ليال، وأما زينب فكانت عند أبي العاص القاسم بن الربيع، فولدت أم كلثوم، وتزوج بها علي، وكان أبو العاص أسر يوم بدر، فمنَّ عليه النبي صلى الله عليه وآله سلم، وأطلقه من غير فداء، وأتت زينب الطائف، ثم أتت النبي بالمدينة فقدم أبو العاص المدينة فأسلم، وماتت زينب بالمدينة بعد مصير النبي صلى الله عليه وسلم إليها بسبع سنين، وشهرين، وأما رقية فتزوجها عتبة، وأم كلثوم تزوجها عتيق، وهما ابنا أبي لهب، فطلقهما، فتزوج عثمان رقية بالمدينة .. وبعدها أم كلثوم..).

وكانت هذه الرواية محلَّ بلبال لا يحسن الوقوف عليه، لأن فيها من الخلل ما لا يخفى، وتكاد تدفع نفسها بنفسها، وأكثر من هذا فيها تشكيك بأبوَّة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لابنتيه زينب ورقية، ومن السهل عدم الالتفات إليها بعدما وقفنا على غير سند عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام خاصة يوثقان أبوته صلى الله عليه وآله وسلم لهما، بالإضافة إلى الروايات أخر كثيرة سبق ذكر بعضها لم تشر ولو من بعيد إلى مثل هذا الأمر، ولا وقفت عليه.

وذكر اليوسفي في هامش الصحيفتين ٣٤٤ -٣٤٥ من الجزء الأول من موسوعته رواية عن القسطلاني حول مواليد أبناء النبي قال بشذوذها، وقال أيضًا: (ويشبه هذا في الشذوذ ما ذهب إليه أبو القاسم الكوفي إذ قال: كانت لخديجة أخت اسمها هالة، تزوجها رجل مخزومي، فولدت له بنتًا اسمها هالة، ثم خلف عليها رجل تميمي يقال له أبو هند، فأولدها ولدًا اسمه هند، وكان لهذا التميمي امرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية، فماتت، ومات

التميمي، فلحق ولده هند بقومه، وبقيت هالة أخت خديجة، والطفلتان من التميمي وزوجته الأخرى فضمتهم خديجة إليها، وبعد أن تزوجت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماتت هالة، فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان العرب يزعمون أن الربيبة بنت فنسبتها إليه، مع أنهما ابنتا أبي هند زوج أختها)، ونقل عن سيرة مغلطاي ١٢: (وخلف عليها -أي خديجة -أبو هالة النباش بن زرارة فولدت له هندًا والحرث، وزينب)، وعلّق اليوسفي على كل هذا بقوله: (فعلى الأول تكون زينب ورقية من ضرة هالة أخت خديجة، وعلى الثاني والثالث تكون زينب بنت خديجة من زوجها السابق أو الأسبق، ولكن لا مجال لهذه الأقوال بعد تصريح نصّ الخبرين المعتبرين للصفار والصدوق المسندين إلى الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام (ولد لرسول الله من خديجة) وفيهم رقية وزينب.

من كلّ ما تقدَّم يكون ما رواه المسعودي في مروجه وقبله اليعقوبي هو الأقرب إلى الصواب، ويوثق روايته ما رواه الصدوق والطبرسي وغيرهما، والراجح أن من ولد له من خديجة رضوان الله عليها قبل الإسلام القاسم وزينب ورقية وأم كلثوم، وولد له بعد الإسلام عبد الله وقد كني بالطيب والطاهر، وفاطمة سلام الله عليهم.

إماطة اللثام

استعرضنا في ما سبق بعض الروايات حول عدد أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ولد منهم قبل البعثة أو بعدها، وموقع الزهراء بينهم، وسنحاول هنا الاقتراب من تاريخ ولادتها ووفاتها سلام الله عليها.

ذكر ابن عساكر في تاريخه روايات عدَّة بشأن ولادة الزهراء البتول سلام الله عليها، تذهب إحداها إلى أنها ولدت قبل الهجرة بخمس سنين، وذكر في أخرى بأربع سنين، وفي ثالثة أنها ولدت وللرسول صلوات الله وسلامه عليه إحدى وأربعون سنة، وعن جعفر بن سليمان أنها رحلت (وهي ابنة إحدى وعشرين سنة)، وعن المدائني (وهي ابنة تسع وعشرين سنة، ولدت قبل النبوة بخمس سنين)، وكأنه جمع ما ورد في كتب علماء أهل الحديث من روايات، ولكن من دون أن يكون له موقف منها، أو يلاحظ مدى التفاوت والتضارب فيما بينها.

وكلٌّ ما روي يريك مدى الصعوبة في تقدير زمان مولدها أو وفاتها، وإذا كنَّا نأخذ بما ورد من روايات عن أهل البيت في تقديرهما، فلأن ذريتها الطاهرة عليها السلام أعرف بأحوالها من غيرها، وقد تواجه الباحث صعوبات جمّة في هذا الطريق أيضًا، فإذا كان قد كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، فليس بعيدًا أن يكذب على أهل بيته عليهم السلام أيضًا، ولك في كتب الرجال الشيعية التي اهتمَّت بأحوال الرواة وتراجمهم مصداقًا لذلك، ولقد وقفت مؤخَّرًا على عدد كبير من رواة الأحاديث

المنسوبة لأهل البيت وهم من الضعفاء أو المجهولين والمجرَّحين في كتابي تنقيح المقال للمامقاني، ونقد الرجال للتفريشي، كما وقفت على غيرهما من قبل.

ولا يقلل من منزلة البتول الثابتة التي حازتها عليها السلام ولادتها في أي زمن من الأزمان، ولاسيما بعد أن ثبت عند جميع طوائف المسلمين أنها سيدة نساء العالمين.

وامرأة في مكانتها لابد أن تحتفي بمولدها ملائكة السماء قبل أهل الأرض، ولابد أن تتدخل الإرادة الإلهية في جميع محطات حياتها، ولابد أن يكون لها من دور كي توضع في تلك المكانة السامية التي لم تستطع أن تطاولها فيها واحدة من بنات حواء.

ومن خلال استقراء جميع الروايات التي وقفت عليها، وأنعمت النظر فيها تأكد عندي أن ولادتها كانت في سنيات الدعوة الأولى، وقد أيدت ذلك كثير من الروايات.

والداخل إلى رحابها عليها السلام لا يراوده شك في أن إرادة سماوية، وقدرًا محفوفًا برعاية ربانية خاصة، ومؤيدًا بإعجاز منه سبحانه رافق حياتها، كي يجعلها أقرب الخلق إلى نفس النبي وأشبههم به خَلْقًا وتربية، وجعلت منها مثالاً لن يتكرر للمرأة التي أرادها الله أن تحمل كل ذلك الشرف والمجد على كتفيها.

ولا شك أنَّ الله سبحانه وتعالى هيَّأ لها الأسباب -وإن كانت قاسية - فقد ودَّعت أمها وهي بعمر الورود كي تتعلق بأبيها أشد التعلُّق، وبسبب من شفقته صلوات الله وسلامه عليه لمصابها في أمها، وبالظروف البالغة التعقيد التي أحاطت بطفولتها، والظروف الصعبة التي كان يمر بها تكفَّل لوحده

بتلك الطفولة، فسقاها من كأس التربية القرآنية التي شرب منها صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نالت عليها السلام الكأس المعلّى عند الله فخصَّها ببركة تتفرد فيها بين النساء، كما خص من قبل السيدة العذراء عليها السلام، فبشَّرَ النبيُّ بمولدها قبل أن تولد، ثم جعل من ولادتها حدثًا لا يشبه بقية الأحداث، فجبريل يخبره بأنها النسمة الطاهرة الميمونة، وأحاديث كثيرة من ذلك فيما أحسب كي تكون من بعد الدفء العاطفي الذي يلجأ إليه النبي الكريم في جميع الظروف، وخاصَّة بعد رحيل خديجة رضوان الله تعالى عليها، وقد زاد من رفعتها وسموها ذلك السلوك الإسلامي القويم الذي امتازت به بين النساء، وتكلّلت مكانتها بالمجد يوم جعلها الله سبحانه وعاء لذرية النبي المباركة التي انتشرت في آفاق الأرض بأعداد لا يحصيها إلا هو، وهذا نسله الشريف على الرغم مما فعلته به الطغم الظالمة من قتل وجور يندى له جبين الإنسانية يملأ آفاق الأرض ذكرًا ومجدًا وسؤددًا، يتبرك عشرات الآلاف من المسلمين كلَّ يوم بتسمية أبنائهم بأسمائهم عليهم السلام.

بشارة الله

يوم احتفت السماء بمولدها

إذا كان علماء أهل البيت ذهبوا إلى أن ولادة الزهراء كانت بعد البعثة المباركة كما سبق القول، فإن رواياتهم لم تتفق على سنة بعينها، كما أن بعض المؤرخين من مدرسة أهل الحديث ذهبوا إلى ما يخالف ذلك ويبتعد عنه.

فذكر البلاذري في أنسابه ٣١/٢ أن العباس بن عبد المطلب دخل (على عليٍّ وفاطمة عليهما السلام، وأحدهما يقول لصاحبه: أينا أكبر؟ فقال العباس: ولدت يا علي قبل بناء الكعبة بسنوات، وولدت ابنتي وقريش تبني الكعبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة)، وقال أيضًا: (وقد قيل: إنها ولدت قبل ذلك). وقال أيضًا في ٣٠/٢: (كان لها يوم توفيت تسع وعشرون سنة، ويقال: إحدى وثلاثون سنة وأشهر)، ويبدو أن أبا الفرج الأصفهاني في مقاتله ٥٩ تابع البلاذري فقال: (كان مولد فاطمة عليها السلام قبل النبوة وقريش حينئذ تبني الكعبة، وكان تزويج علي بن أبي طالب إياها في صفر بعد مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وبنى بها بعد رجوعه من غزوة بدر، ولها يومئذ ثماني عشرة سنة). وهذا التاريخ من الصعب الأخذ به لعدم وجود مسوغ مقبول على تأخر زواجها، فهي الزهراء سيدة نساء العالمين، وهي ابنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، ويعلم المهاجرون والأنصار أنها أقرب ذريته إلى نفسه الشريفة، وإذا كان المجتمع في ذلك الزمن قد اعتاد على تزويج البكر من النساء في سنٍّ مبكرة، فلماذا يتأخر زواج أهم شخصية نسوية إلى ذلك السن؟ لذا

فإن الأخذ برواية البلاذي أو من تابعه يبدو مستحيلاً وخاصة إذا وقفنا على روايات موثّقة تعارضها وتنفيها.

وذكر الغروي في كتابه موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٣٤٥ -٣٥١ روايات عدَّة عن أئمة مذهب أهل البيت متصلة السند بذريتها عليها السلام تذهب إلى أنها ولدت بعد البعثة ما بين سنتين إلى خمس سنوات.

من أسباب الاختلاف في مولد البتول

وأود أن أشير هنا قبل مناقشة الروايات إلى أنه إذا كان المؤرخون وأصحاب التراجم قد اختلفوا في تحديد ولادتها، فهو أمر طبيعيٌّ في ذلك الزمن، وحتى في أزمان قريبة جدًّا، بل إن ملايين الناس في عصرنا هذا لا يعرفون تاريخًا لولادتهم، وكان من بين الأمور التي تدخلت في تقدير عمرها يوم زواجها أو وفاتها فيما أحسب تقديرهم عمر والدتها خديجة الكبرى يوم تزوجها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فقدَّره بعضهم بثمانية وعشرين سنة كما جاء في طبقات ابن سعد ١٧/٨ بسنده عن ابن عباس، وقد ذهب إلى مثل هذا التاريخ الحاكم في المستدرك ١٨٢/٣ فقال: (وكان لها يوم تزوجها رسول الله ثمان وعشرون سنة)، ويبدو أن التاريخ الذي ذكره الحاكم هو الراجح عنده، فقد ذكر في معرض تعليقه على ما روي عن هشام بن عروة الذي قال: (توفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي ابنة خمس وستين سنة)، (هذا قول شاذ فإن الذي عندي أنها لم تبلغ الستين).

وذكر ابن سعد في طبقاته ١٧/٨ روايات عدة تذهب إلى أنها قد بلغت الأربعين يوم تزوجها صلى الله عليه وآله وسلم، وبلغت الخامسة والستين

يوم رحيلها، ولا شك أن كلا التقديرين لا نستطيع الأخذ به، إذ إن كليهما لا يستند إلى دليل يمكن الاطمئنان إليه، وليس من دليل قاطع لتقدير عمرها رضوان الله عليها إلا أنها كانت أكبر من المصطفى يوم تزوجها، وقد يبكِّرُ الكِبَرُ على النساء في البلاد الشَّديدة الحرارة فيأتي في غير موعده، كما تبكِّر النساء بالنضج في تلك البيئات، وهو أمر ملاحظ فيها، ومازالت النساء حتى عصرنا الحاضر يتزوَّجن في عمر مبكِّر في تلك البلاد، وليس غريبًا أن ترى في اليمن أو السودان أو النيجر أو غيرها من دول الغرب الإفريقي أو الشرق الآسيوي مثلاً امرأة لما تبلغ الثانية عشرة وهي تحمل وليدها على يدها.

ولقد دفعهم تقدير عمر الأربعين لخديجة يوم زواجها، وتقدير الخامسة والستِّين لوفاتها كما ذكر بعض رواة ابن سعد في طبقاته ١٨/٨ وغيره إلى التشبُّث بكون ولادة الزهراء كانت قبل البعثة.

وتشبث بعض من قدَّر عمر خديجة يوم تزوجها النبي بأربعين سنة، وأن ولادة الزهراء كانت بعد البعثة بحكايات لا تبدو مقنعة أيضًا، وإن كانت ليست ببعيدة من مثل تأخر طمث الهاشمية أو القرشية إلى ما بعد الخمسين بكثير، ولو أنهم نظروا إلى الأمر في واقعه لاختلف عندهم، نعم يمكن أن يقال: إن خديجة رضوان الله عليها كانت أكبر من النبي صلى الله عليه وسلم من دون دخولٍ في تقديرات لسنا في حاجة إليها لعدم وجود قرينة تسندها فتجرُّ إلى حكايات يصعب أن يقبلها المنطق والعقل من بعد.

على أن أمورًا تدخلت أيضًا في تحديد عمر الزهراء يوم زفافها حتى كادوا يقتربون فيه من عمر زوجها عليهما السلام، ولا أرى ما يدعو إلى الالتفات إليها أو مناقشتها، ولكن الذي لا ريب فيه عندي أنها ولدت بعد نزول الوحي بفترة

ليست بقصيرة، ويؤيد هذا الاتجاه ما روي عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله من أنه قال لأم المؤمنين خديجة الكبرى قرب ولادتها « يا خديجة هذا جبريل يبشرني أنها أنثى »، ومما لا شك فيه أن البشارة كانت بعد البعثة وليس قبلها.

وإذا كان اليعقوبي ذكر في تاريخه ١/ ٣٤٠ أن ولادتها عليها السلام كانت بعد البعثة، فقد تابعه بمثل هذا المسعودي كما سبق القول، وتابعهما ابن عبد البر في استيعابه ١٨٩٣/٤ فذكر أن ابن السراج قال: (سمعت عبد الله بن محمد بن سليمان بن جعفر الهاشمي يقول: ولدت فاطمة رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين من مولد النبي)، وقد روى الرواية السابقة عنه ابن عساكر كما سبق القول، ولا شك أنها تعني أن ولادتها كانت بعد البعثة، لأن الروايات تكاد تجمع على أنه يوم بعث صلوات الله وسلامه عليه كان قد بلغ الأربعين.

وذكر ابن عبد البر في المصدر السابق أيضًا: (أنكح رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة علي بن أبي طالب بعد وقعة أحد، وقيل: تزوجها بعد أن ابتنى رسول الله صلة الله عليه وسلم بعائشة بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجه إياها بتسعة أشهر ونصف، وكان سنها يوم تزوجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وكانت سن علي إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر)، وعلى الرغم من وهمه في ذهابه إلى أنها تزوجت بعد واقعة أحد، ومبالغته في تقدير عمرها يوم زواجها، فإن روايته هذه تقترب من روايته السابقة، وتكون ولادتها فيها بعد المبعث الشريف وليس قبله.

وابتعد اليعقوبي في تاريخه ٤٤٦/١ في تقدير عمرها الشريف عن روايات علماء أهل البيت يوم رحيلها، فذكر أنها حين انتقلت إلى جوار أبيها صلوات الله وسلامه عليهما (كان سنُّها ثلاثًا وعشرين سنة).

ويبدو لي أن أقرب الروايات إلى القبول هي رواية الشيخ المفيد التي نقلها الغروي في كتابه موسوعة التاريخ الإسلامي ٣٤٨ -٣٤٩ وهي: (كان مولد السيدة الزهراء سنة اثنتين من المبعث)، وتابعه فيها تلميذه الشيخ الطوسي الذي قال في المصباح إن ولادتها: (في اليوم العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين من المبعث كان مولد فاطمة في بعض الروايات)، ورواية المفيد في البحار ٨/٤٣ عن كتابه حدائق الرياض، وفيه: (يوم العشرين من جمادى الآخرة كان مولد السيدة الزهراء عليها السلام سنة اثنتين من المبعث)، ولكن الشيخ الطوسي عاد فقال: (وفي رواية أخرى سنة خمس من المبعث)، وهي أيضًا في كافي الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام كما في بحار المجلسي ٨/٤٣الذي ذكر أيضًا في ٩/٤٣ روايتين الأولى عن مصباح الكفعمي ذكر فيها أنها ولدت (في العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين من المبعث، وقيل سنة خمس من المبعث)، ونقل عن المصباحين أيضًا ما يطابق رواية الكفعمي، ولكنه حدَّد فيها اليوم، وهو الجمعة، وذكر أيضًا عن دلائل الطبري الإمامي بسنده عن الصادق عليه السلام أنها (ولدت في جمادى الآخرة اليوم العشرين منها سنة خمس وأربعين من مولد النبي)، ونقل عن الكافي بسنده عن الصادق أيضًا أن ولادتها كانت بعد المبعث بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وسبعون يومًا، وروى في ٧/٤٣ عن ابن شهراشوب في مناقبه بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنها ولدت بعد المبعث بخمس سنين، وبعد الإسراء بثلاث سنين في العشرين من جمادى الآخرة، وقبض النبيُّ ولها ثماني عشرة سنة وسبعة أشهر.

ووردت رواية في كتاب تاريخ مواليد ووفيات أهل البيت ٩ لابن الخشاب (ت ٥٦٧هـ)، ونقلها عنه من بعد الإربلّي (ت ٦٩٣هـ) في كتابه كشف الغمَّة

في معرفة الأئمّة ٧٦/٢، ونقلها عنه من بعد المجلسي في بحاره ٧/٤٣ كانت محلّ تأمل وتعقيب، إذ قال بسند يرفعه إلى الصادق عليه السلام: (ولدت فاطمة بعدما أظهر الله نبوّة نبيّه وأنزل عليه الوحي بخمس سنين - وقريش تبني البيت - وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة، وخمسة وسبعين يومًا)، ويبدو أن جملة (وقريش تبني البيت) مقتطعة من رواية سبق ذكرها فيه، ولا شك أنَّ ورودها كان سهوًا من مؤلف الكتاب أو ناسخه بسبب انتقال النظر، أو أن النسخة التي اطّلع عليها المجلسي، وقبله الإربلّي وغيره وقع فيها سقط أحال الرواية إلى صورتها المشوَّهة السابقة، لأن ورود تلك العبارة لا يتناسب مع ما ذكره من ولادتها عليها السلام (بعدما أظهر الله نبوة نبيّه وأنزل عليه الوحي بخمس سنين)، فأين هذا من بناء الكعبة، والذي يوثق وقوع السهو أو السقط أن ابن الخشاب أورد بعد روايته تلك رواية عن صدقة ذكر فيها أن عمرها يوم وفاتها ثماني عشرة سنة وشهر وخمسة عشر يومًا، وكان عمرها مع أبيها بمكة ثماني سنين، وهاجرت إلى المدينة فأقامت معه عشر سنين، وكان عمرها ثماني عشرة سنة، فأقامت مع علي أمير المؤمنين بعد وفاة أبيها خمسة وسبعين يومًا، وفي رواية أخرى أربعين يومًا، وهي في البحار أيضًا ٧/٤٣.

وتبتعد قليلاً عن رواية االشيخ المفيد السابقة الذكر رواية ذكرها الحاكم في مستدركه ١٦٣/٣ بسنده عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام تذهب إلى أنها سلام الله عليها انتقلت إلى جوار أبيها (وهي ابنة إحدى وعشرين سنة، وولدت على رأس إحدى وأربعين من مولد النبي صلى الله عليه وآله).

ومن الدليل على أنها لم تكن بالعمر الذي قدَّره رواة البلاذري أو غيره، تأخر عقد إملاكها إلى أخريات السنة الأولى من الهجرة المباركة في غالب

الروايات، وذهاب جميع الروايات إلى تأخُّر دخول الإمام بها إلى السنة الثانية، أي بعد مرور قرابة سنة على عقدها، بل إن ما يبعده أيضًا قول النبي الكريم لأبي بكر وعمر يوم خطباها: «إنها صغيرة» في رواية ذكرها النسائي في سننه في كتاب النكاح ٢٦٥/٣ بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، فلو كانت قد جاوزت الثامنة عشرة لما قيل عنها: إنها صغيرة، ولاسيما بعد أن بنى الرسول بعائشة ولمَّا تبلغ العاشرة كما روى ابن سعد في طبقاته ٥٨/٨.

وإذا كنت أميل إلى قبول رواية الشيخ المفيد، التي اقترب منها اليعقوبي والمسعودي وابن عبد البرِّ وغيرهم، فإنه من الصعب تحديد مولدها باليوم والشهر كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات.

ولا قيمة لما مِلْتُ إليه إذا صحت رواية الكافي السابقة الذكر عن الإمام الصادق عليه السلام التي تذهب إلى أن ولادتها كانت بعد نزول الوحي بخمس سنوات، وقد رأى بعضهم أنها في رمضان، والمأخوذ به عند كثير من أتباع مذهب أهل البيت أنها كانت في العشرين من شهر جمادى الثانية في السنة الخامسة من البعثة النبوية كما ذكر حسين الشاكري في كتابه فاطمة الزهراء ٤١ عن مصادره.

ولمَّا كانت هي البشارة التي بشر الله بها نبيه قبل مولدها، فليس هناك من شكٍّ بأنَّ احتفاءه صلوات الله تعالى وسلامه عليه في يوم مولدها كان عظيمًا.

في أحضان النبوة

ولدت الزهراء سلام الله عليها في أحضان الفطرة والطهر، وعلى الرغم من ظروف طفولتها المبكرة القاسية التي سنقف على مشاهد منها أكاد أراها يوم درجت وفتحت عينيها شعرت بمدى العزة التي تحيط بها، وشموخ الأسرة التي أنجبتها، والاحترام والإجلال الذي أحيط بأبويها في وسطها، ولعلها ملأت بصرها من النظر إلى قامات عمومة أبيها الشامخة، ومن الاستماع إلى قصص أمجادهم، وحكايات مواقفهم التي تملأ النفس كبرًا واعتدادًا وسط قسوة ظروف التي أحاطت بهم قبل الحصار وبعده.

ويغلب على الظن أنها فهمت أن الضائقة التي ارتضاها بنو هاشم وبنو المطلب وما تبعها من قلق وخوف سببها موقف أبيها من ديانة قريش وأصنامها، وأنَّ من اصطفَّ مع أبيها من مشركيهم خاصة اصطفَّ بسبب مكانته عند سيد قريش وعماد البيت الهاشمي أبي طالب رضوان الله عليه، ولعل ذاكرتها المتوقدة التقطت صورًا لتلك الشخصية التي ملأت البيت القرشي رهبة وإجلالاً واحترامًا، ولعله رضوان الله عليه منحها من شفقته ما كان يمنحه لأبيها في طفولته وشبابه ومازال، بل يغلب على الظن أنه كان يسعد برؤيتها وهي تدرج أمامه بذلك البهاء، ولو كان التاريخ أمينًا في حفظ أحداثه لنقل لنا صورًا عن تلك الرعاية، وذلك الحزن المبهم الذي اكتنفها سلام الله عليها يوم رحيله الذي لم تشهد البطحاء مثيلاً له.

ويراودني يقين أيضًا أنها حظيت بمعاملة غاية في الخصوصية من عمَّات أبيها عامة، ومن عمِّه حمزة الذي احتلَّ منزلة خاصَّة في نفسه الشريفة، ولعلَّ ما يوثِّق علاقتها ويميزها به رضوان الله عليه خاصَّة، أن فجيعتها باستشهاده كانت عظيمة، فقد بكته أحر البكاء، وكانت تزور قبره كلَّ أسبوع كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات.

ولا شك أنها كانت محلَّ عناية جعفر بن أبي طالب عليه السلام ورعايته، بدليل شديد حزنها عليه بعد استشهاده رضوان الله عليه، فقد روى ابن سعد في طبقاته ٢٨٣/٨ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن أخبر أسماء باستشهاد زوجها (دخل على فاطمة وهي تقول واعماه، فقال رسول الله صلى الله عله وسلم: «على مثل جعفر فالتبك الباكية اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم»

وليس كثيرًا أن تكون محطَّ رعاية وعناية الرهط المسلم الذي رافق أسرتها في ذلك الحصار، وأكاد أراها سلام الله عليها تشع بهجة وحبورًا بوجهها الأبيض المشرَّب بالحمرة، وبصفاء عينيها واتساعهما، وبشعرها الأسود الفاحم الذي أحاط بذلك البهاء في المحيط الذي تتحرك فيه.

ويراودني يقين أن تلك الأم الرؤوم كانت تقضي ساعات تحدثها عن عظمة أبيها ومكانته عند الله، وعن يوم مبعثه، والظروف التي كان يمر بها، فكانت حينما تنظر إليه أو يتحدث معها من بعد تمتلئ عزَّة وفخرًا ومحبَّة، ويوم رحلت تلك السيدة الميمونة، أحاطها ذلك الوالد العظيم بأنواع التربية القرآنية والخلق الإسلامي القويم.

وطبيعي أن تكون قد حفظت ما أنزل من القرآن على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم أسوة بأمها وابن عمها رضوان الله تعالى عليهما، ومازالت تقترب منه من بين بناته حتى تمازجا، ولا شك أن ذلك الاقتراب كان محاطًا بطاعة تامَّة مشوبة بمحبَّة لا حدود لها، ويقرب إلى ظني أنها كانت كظله حينما يدخل الدار تنتظر أيَّ أمر أو طلب يصدر منه كي تلبِّيه بكل فرح وسرور، بل لعلها كانت تدرك ما يريد فتلبيه قبل أن يطلبه، وشيئًا فشيئًا أصبحت « أم أبيها»، كما كان هو بالنسبة لها كلَّ عوالمها حتى باتت لا ترى غيره بين الرجال.

وإذا كنَّا قد رأيناها تنماز على أشقائها وشقيقاتها بأنها الوحيدة التي لم ترضع من غير ثدي أمها كما روى ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس، فإنه من الصعب أن نقف على مشاهد من طفولتها المبكرة في لهوها وعبثها وصدى ضحكاتها في نفس أبويها، وهي بكل ذلك الثقل، إلا أننا نستطيع أن نقدر عظمة أثرها في نفسيهما!.

والناظر في مشاهد طفولتها التي حفظتها الذاكرة التاريخية لا أظنه يقف فيها على لهو أو لعب، ولا أظنه يراها ضاحكة أو لاهية مع لدات من بنات جنسها في عمرها الشريف، ومن نكد القول أن أول المشاهد التي نقف عليها كان في غاية الحزن واللوعة، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ١/ ٣٥٤ أنها يوم رحيل أمها تعلقت بأبيها (وهي تبكي وتقول: أين أمِّي؟ أين أمِّي)، ولا شك أن الموقف يخبرك بمدى ذهول الذي أصيبت به تلك الطفلة التي وجدت نفسها فجأة محرومة من ذلك الدفء الذي استوعب غالبيَّة طفولتها المبكِّرة بسبب انشغال والدها صلوات الله عليهما بهموم الدعوة ومشكلاتها، فغالبتها

الظنون من غيبتها، ولكنها لم تستطع التصديق بأنها لن تعود ثانية، فتعلقت بأبيها تستنجد به لعله يخلّص تلك الأم الرؤوم من براثن الموت ويعيدها إليها، وقد يوحي إليك المشهد أيضًا بآفاق الرعاية التي أحاطتها بها.

وتستطيع أن تستشفَّ منها أيضًا أن تلك الطفلة لم تكن قد جاوزت السابعة، ولو كانت ابنة خمسة عشر عامًا أو أكثر كما ذهب إلى ذلك بعض رواة الأخبار لاختلف المشهد تمامًا.

ورأيناها عليها السلام تمسح الأذى عن أبيها، وترد على جواره الدنس بمكّة بعد رحيل عمه أبي طالب رضوان الله عليه، فقد وصل تهور أبي جهل ومن تابعه إلى إلقاء رَفَثِ جزورٍ عليه وهو ساجد بين يدي الله سبحانه وتعالى، فما كان من الزهراء البتول إلاّ أن زجرت ذلك الجوار بما يستحقه على قدر استطاعتها، وأماطت الأذى عن أبيها صلوات الله وسلامه عليهما كما روى البلاذري في أنسابه ١٤١/١، وكثير على وليدة في الخامسة من عمرها أن تفعل ذلك، ولكن لا يستبعد على ابنة السابعة أو الثامنة في مثل تلك الظروف فعل ما فعلت.

نفحة من ثمار الجنة

ويوم دبَّ الدفء في جسد الزهراء الطاهر لابدَّ أنها شعرت باختلافها عن لداتها، ولعل نسوة من بني هاشم وغيرهن سألنها غير مرَّة إن كانت قد أدركت مدرك النساء، ولعل القريبات منها ساورهن بعض القلق من تأخُّر طمثها، ولم يدر في خلدهنَّ أن خديجة رضوان الله عليها يوم وضعتها، وضعتها طاهرة مطهرة، قد أذهب الله الرجس عنها، فلا يرى لها دم في طمث ولا في ولادة، وقد كان أمرها موضع استغراب أسماء، يوم أشرفت على توليدها بولدها الحسن الزكي عليه السلام إذ لم تر لها دم في الولادة كما هو معتاد، ولم تستطع إخفاء دهشتها فسألت النبي عن ذلك فقال لها صلى الله عليه وآله: «أما علمت إنَّ ابنتي طاهرة مطهرة لا يُرى لها دمٌ في طَمْثٌ ولا ولادة»، كما جاء في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٩٠، وكان هذا بعض ما امتازت به على بقية بنات جنسها، إذ جمعت ما بين صفات الملائكة، وحور الجنان. وقد ينصرف الذهن إلى أن راوية الخبر هي أسماء بنت عميس التي كانت برفقة زوجها جعفر بن أبي طالب في الحبشة في تلك المناسبة ولا شك أن المراد أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، كما رجح عند الشيخ الغروي في موسوعته ٢/٤٣٥.

وإذا كنت قد حاولت ما أمكن الابتعاد عن الروايات التي اتَّسمت بطابع غيبي، فلا يعني ذلك أن كلَّ ما ورد منها لا يمكن تصديقه أو الأخذ به، فما أكثر القصص القرآني الذي لا يتلاءم مع مدارك العقل، فقد رأينا نارًا موقدة

لا تترك أثرًا بإبراهيم، ورأينا كبشًا يفدَّى به إسماعيل، ورأينا مشاهد من حمل مريم وولادتها، ورأينا عيسى عليه السلام يتكلّم في مهده، ورأينا مائدته، ورأينا قدرة سليمان، وقوَّة عصى موسى، ولا نستطيع أن ننكر هذا ولا نناقشه لأنه من قدرة الله، بل ما أكثر ما كان يراه الناس مما لا يدركه عقل فأصبح واقعًا تراه العين، وفي سيرة النبي من المعجزات ما يصعب تصور وقوعها، ولكنها وقعت، بل ما أكثر ما تحدَّث الناس عن أعاجيب مرَّت بهم وهم ليسوا من الأنبياء ولا من طبقتهم، وإذا كان هذا واقعًا شاهدنا بعضه، وسمعنا ببعضه الآخر فليس كثيرًا على الزهراء أم آل البيت بكلّ كراماتهم وسيدة نساء العالمين باتفاق المسلمين أن ينماز خلقها عن بقية خلق الله لحكمة الله سبحانه وتعالى، وذلك بأن تكون بذرتها تختلف عن بذرة بقية خلق الله، كما كانت بذرة عيسى عليه السلام، فإذا اقتنعنا بذلك يكون من السهل أن نأخذ بالروايات التي ذكرها الحاكم في مستدركه ١٥٦/٣، والمجلسي في بحاره ٥/٤٣ -٧ من أن الماء الذي استقرَّ في رحم خديجة من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فحملت منه بفاطمة سلام الله عليهما تكوَّن من ثمرة من ثمار الجنة أهداها جبريل للنبي وهو يعرج إلى السماء، وتوثيقًا لأمر نطفتها الطاهرة نقل الدكتور فاضل الميلاني في كتابه فاطمة الزهراء أم أبيها ثلاث روايات تدور حول كثرة تقبيل النبي لفاطمة لأنه كان يشم فيها رائحة الجنَّة، وقد وثَّق تلك الروايات من مصادر مختلفة، أكتفي بذكر إحداها، وهي عن ابن عباس الذي قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر القبل لفاطمة، فقالت له عائشة: إنك تكثر تقبيل فاطمة! فقال: «إن جبريل ليلة أسري بي أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها فصار ماء في صلبي فحملت خديجة بفاطمة،

فإذا اشتقت لتلك الثمار قبّلت فاطمة ، فأصبت من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها»، وقد لا يراودك تردُّدٌ في قبول أيّة رواية من روايات فضائلها عليها السلام التي انتشرت في كتب الحديث والتاريخ التي يغلب عليها الطابع الروحاني الغيبي، ويوم امتازت على غيرها من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلبه فمن الطبيعي أن يحتفي الرهط المسلم بتلك الطفلة وهي تتعثَّر في مشيتها، ويزداد احترامهم وتقديرهم لها حين اكتمال نضجها..

وإذا كانت الغيرة طبع في النساء فإنه يحق لكل زوجات النبي صلوات الله وسلامه عليه، ولكل من أحطن بها من النساء مهما بلغن من الصفاء والتقوى الغيرة من هذه الحوراء الإنسية التي احتلت كل مواضع الصدارة بين نساء العالمين، فهن أمام امرأة تحسب من النساء ولكنها ليست منهنَّ ، وهنَّ يرين في سلوكها القرآني ما لا تستطيع واحدة منهن التشبُّه به، وفي عبادتها وتقواها ما لا تستطيع واحدة أن تطاولها به.

وقد تتأجَّج الغيرة في نفوسهنَّ وهنَّ يرين مدى تعلق النبي بها، ولا شك أن وراء ذلك التعلق ما وراءه، ولنا في حديث السيدة عائشة مصداقًا لهذه الرؤى فقد وصفتها فأحسنت الوصف، كما تحدَّثت عن علاقتها بأبيها صلوات الله وسلامه عليهما فصدقت يوم قالت: (ما رأيت أحدًا أشبه سَمتًا ودلاً وهديًا برسول الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم، قالت: وكانت إذا دخلت على النبي صلى الله عليه وسلّم قام إليها فقبَّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته وأجلسته في مجلسها)، كما ورد بكتاب المناقب في باب فضائلها في سنن الترمذي ٣٥٩/٥، وذكر قريبًا منه ابن سعد

في طبقاته ٢٦/٨ ، ويوثق ذلك الشبه ابن شهراشوب فيما رواه في مناقبه بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال : (ما رأيت فاطمة تمشي إلاّ ذكرت رسول الله صلى الله عليه وآله تميل على جنبها الأيمن مرَّة ، وعلى جنبها الأيسر مرَّة).

ما قبل الحصار وبعده

ليس من السهل تقدير الظروف التي أحاطت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلال سنيات الدعوة الأُوَل، على الرغم مما كتب عنها، وهي بكل الأحوال صعبة الاحتمال، بالغة الإظلام، كثيرة النوائب، شديدة التعقيد، إذ كان في بدايتها مضطرًّا لتلمس طريقه في دامس خيم على سماء أهل مكة فأفقدهم نعمة الإبصار، كما أفقدهم إنسانيتهم حتى قاربوا وحوش جبالهم في ضراوتهم على من آمن بدعوة الحق التي رأوا فيها عدوانًا حقيقيًّا على موروثهم الذي يستمدون منه السلطة والجاه والحظوة والمكانة بين القبائل، وفوق هذا هو من أهم مصادر ثروة أسواقهم في مكة.

وإذا كانت الأمور قد سارت سيرًا هينًا في سنية الدعوة الأولى فبسبب سريتها، ولأنَّ أقطاب قريش رأوا فيها ما يدعوهم إلى التندر عليها في مجالس شربهم ولهوهم حينما وصلتهم أطراف من أخبارها ولاسيما حينما اكتشفوا أنها محصورة في نفر محدود ليس فيه من علية القوم من يخشى منه.

وفجأة شعرت قريش أن الماء يسيح من خلال أصابعها ، فقد بدأت الدعوة بالتسلُّل إلى بيوتهم وأصبحت تهدد مجدهم ومصالحهم بعد أن مرَّت عليها سنيات، وجاء الأمر بالإعلان عنها في محافل قريش ومجالسها، وفي البيت العتيق، وأثناء وفادة الوفود ومواسم الحج.

ولم يكن باستطاعتهم الاعتداء على صاحبها، ولا الحدّ من اندفاعه، ولا قتله للتخلص منه، لأنَّ أعراف المجتمع القبلي تمنعهم من ارتكاب مثل تلك

الحماقة، بسبب ما يملكه صاحب الدعوة صلوات الله وسلامه عليه من حماية تقف سدًّا منيعًا في وجه أي عمل متهور ينوون القيام به. ولكن ذلك لم يمنعهم من الاستهزاء به واتهامه بالسحر مرة وبالجنون في أخرى، وبالكهانة والشعر، وبشتى التهم التي تمنع الناس من الإيمان بدعوته.

ولما كانت غالبية المؤمنين بدعوته صلى الله عليه وآله وسلم من الطبقة المسحوقة، فقد مارست الطبقة المتسلطة من قريش شديد عدوانها عليهم، وسامتهم من العذاب ما أسهبت كتب السيرة والتاريخ في الحديث عنه، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يرى كلَّ ذلك، ويعاني من العذاب النفسي أضعاف ما عاناه أصحابه من العذاب الجسدي، وفي ذات الوقت لم يكن باستطاعته تشجيع أصحابه للرد على ذلك العدوان لأنَّ الأمر فيه لم يأت بعد.

وفي تلك الظروف وجد النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه مضطرًا إلى انتشالهم ومساعدتهم مما أحاط بهم من جور وعنت، وذلك بتحرير من يستطيع تحريره من العبودية، أو بتقديم ما يستطيع تقديمه هو ومن آمن به من عون لذلك النفر، ويوم وقع الحصار الظالم على بني هاشم ومن تابعهم أنفق النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم جميع ماله على فقرائهم، وكذلك فعل أبو طالب رضوان الله عليه، وقد تكفّلت زوجته البارة خديجة سلام الله عليها بغالبية الجانب المادي في أيام المحنة تلك، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ١/ ٣٥٠ (أنفق رسول الله ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، وصاروا إلى حدِّ الضرِّ والفاقة)، وأشار ابن عبد البر في استيعابه ٤/ ١٨٢٤ إلى مواساة خديجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمالها.

وإذا كنت لا أستطيع تقدير عمر الزهراء عليها السلام على وجه الدقة يوم دخلت الشعب، فإنَّ أحدًا لا يستطيع القول أنها نعمت برفاهية في تلك الطفولة المبكرة بسبب الظروف الصعبة التي أحاطت بأبويها، بل لعلها كانت تدرك من خلال أحاديث أمها بعض ما يقاسيه أبواها سلام الله عليهما، والذي لا أشك فيه أنها كانت حينما تنظر إلى طلعته البهية تتزايل متاعبه وتحل مكانها البهجة والسرور.

وما أن مرَّت أشهر معدودات على انتهاء ذلك الحصار الرهيب الذي عانى منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبنو هاشم ما عانوه من قهر قريش وظلمهم حتى رحلت تلك الأم الرؤوم التي كانت تجد فيها الدفء والرعاية، وكان رحيلها في شهر رمضان قبل هجرته المباركة بثلاث سنين، وحينما رآها صلوات الله وسلامه عليهما تجود بنفسها الشريفة قال لها: «بالكره منِّي ما أرى، ولعل الله يجعل في الكره خيرًا» كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٣٥٤/١، وكيف لا يكون رحيلها بالكره منه وهي أول من آمن بدعوته وصدَّقه، وآزره، ولا أدلَّ على ذلك من قول ابن هشام في سيرته ١٥٨/١ ول دورها رضوان الله عليها: (فخفَّف الله بذلك على نبيِّه صلى الله عليه وسلم، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلاَّ فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبِّته وتخفِّف عليه، وتصدِّقه، وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى)، وقبل أن يفيق من تلك الفجيعة أصيب بنازلة أشد منها، إذ سرعان ما التحق بها أبو طالب رضوان الله عليه، وقد تحدثت في الجزء الأول عن أيام الحزن تلك، وما تركته في نفسه من ألم لم يفارقه صلوات الله وسلامه عليه طيلة حياته.

السيدة التي ما أبدله الله بخير منها

وهنيئًا لتلك السيدة الكريمة ما حازته من مكانة عند رب العرش العظيم، وفي نفوس المسلمين عامة، ونفس رسول الله خاصة، وبسبب من كثرة تذكُّرِها وحنينه إليها، فقد كانت مصدر إثارة غيرة السيدة عائشة منها ولم تكن قد رأتها من قبل كما صرحت بذلك، ومن شدة تعلق النبي بذكراها كان يحتفي بأقربائها، ويصل متعلقيها، فقد ذكر البخاري في صحيحه ٢٣٦/٤ أن عائشة قالت: (ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»)، وكيف لا تغار منها وهي تسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله من بين ما سمعت أن خير نساء العالمين «مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» كما روى ابن عبد البر في استيعابه ١٨٩٦/٤، ولم تحرز هذه السيدة العظيمة تلك المنزلة السامية من نفس رسول الله فحسب، وإنما أحرزتها عند الله سبحانه وتعالى، روى البخاري عن أبي هريرة في صحيحه ٢٣١/٤: (أتى جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه أدام أو طعام أ شراب، فاقرأ عليها السلام من ربها، ومنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)، وقد وثق حكاية البشارة عبد الله بن أم أوفى كما ذكر البخاري في صحيحه ٢٣١/٤ أيضًا، ووثقها الحاكم في مستدركه ١٨٢/٣ من غير طريق، والنسائي في سننه الكبرى ٩٤/٥ من غير

طريق ، ولعل من عظيم كراماتها ما رواه الحاكم في المصدر السابق عن أنس الذي قال : (أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعنده خديجة رضي الله عنها فقال : إنَّ الله يقرئ خديجة السلام ، فقالت : إن الله هو السلام ، وعليك السلام ورحمة الله) ، وذكرها النسائي أيضًا في سننه ٩٤/٥ من غير طريق.

وإذا كان النبي قد استمد القوة والحماية صلوات الله وسلامه عليه من عمه أبي طالب رضوان الله عليه ، فإنه كان يجد الدفء والإيثار والمحبة الصادقة من تلك الزوجة العظيمة التي وضعت مالها جميعه تحت تصرفه يفعل به ما يشاء ، فكانت أعظم سند له بعد عمه أبي طالب.

ويوم نزول الوحي عليه كانت أول من لجأ إليه ، فهدَّأت من روعه وصدقته وآمنت بنبوته ودعوته ، وبلغت محبته لها مكانة لم تزاحمها فيها واحدة من نسائه ، ذكر ابن عبد البر في استيعابه ١٨٢٤/٤ من غير طريق عن السيدة عائشة : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلاَّ عجوزًا فقد أبدلك الله خيرًا منها ، فغضب حتى اهتزَّ مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : «لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولادًا إذ حرمني إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبدًا) ، وقد وقفنا على مشاهد من تلك الرعاية في الجزء الأول من كتابنا (وما أدراك ما علي). ويوم رحل العون والدفء ، حلَّ عام الحزن في بيت النبوة ،

ولكن الله سبحانه عوضه عونًا بعون، ودفءًا بدفء، فقد وجد في أخيه المرتضى تعويضًا عن الراحل العظيم، كما وجد في أم أبيها الزهراء عوضًا عن دفء الفقيدة الراحلة.

من أوسمة البتول

يا أهل الجمع غضُّوا أبصاركم حتى تمرَّ

فاطمة بنت رسول الله

ولا شكَّ أن الزهراء عليها السلام كانت موضع غبطة وحسد بسبب حجم الأوسمة التي اتشحت بها، على الرغم من أن الجميع رجالاً ونساء كانوا على بيِّنة أن تلك الأوسمة لم تكن برغبة من الرسول - وإن كانت - وإنما هو تكريم وتأييد من صاحب العرش العظيم، بدليل أنه ما من أحد من الصحابة أو المحدثين شكَّ من بعد في ذلك.

وقد أفردت كتب الصحاح بابًا لمناقبها عليها السلام، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما رواه الحاكم في المستدرك ١٥٢/٣عن ابن مسعود من أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ فاطمة أحصنت فرجها فحرَّم الله ذريتها على النار»، وروى في ١٥١/٣ عن عليٍّ عليه السلام أيضًا: «أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة والحسن والحسين، قلت يا رسول الله، فمحبونا؟ قال: من ورائكم»، وروى في ١٥٣/٣ عن أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: (تبعث الأنبياء يوم القيامة على دوابٍّ ليوافوا المؤمنين من قومهم المحشر، ويبعث صالح على ناقته، وأبعث على البراق، وتبعث فاطمة أمامي).

وامرأة بهذا المقام لابد أن تقوم لها الملائكة احترامًا وإجلالاً، وعجيب كيف استطاعت الأرض أن تحمل خطواتها وهي بهذا الثقل، وحقَّ لها أن لا

يكون لها من كفء إلاّ المرتضى، فأبوها وهو وهي وولداها سادة خلق الله وأحبته صلوات الله وسلامه عليهم.

وبين ولادتها وزواجها ورحيلها تتأكد هذه الحقيقة على لسان أبيها المصطفى في مناسبات عدَّة، ولا أشك في أن الله ميَّزها لأسباب جعلتها جديرة بكلّ تلك الأوسمة، فقد مرَّت علينا مشاهد، وهناك أخر منها يوم تحدثنا عن معركة أحد فقد رأيناها لا تطيق صبرًا على البقاء في خدرها، فقد هبَّت ملهوفة تقطع كل تلك المسافة من المدينة إلى أحد لتصل إلى أبيها فتضمد جراحه، وتغسل الدماء عن وجهه الشريف، ولعلَّ انشغالها بجراح أبيها أنستها أن تلتفت إلى جراح زوجها التي كانت تنزف من كلّ أقطار بدنه، وقد ذهبت الروايات في وصف خطورتها كلّ مذهب، وكنَّا ألمحنا إليها في أثناء حديثنا عن معركة أحد ودور المرتضى فيها، بل ما رأينا زوجها يلتفت إلى تلك الجراح فيهتم بها، لأنه كان في شغل عنها بجراح أخيه، وبما سيأمره به من بعد في تلك اللحظات الحرجة من تاريخ الإسلام، لقد خرجت المخدَّرة من بيتها، ولا أدري كيف خرجت، وعلى أيَّة دابَّة قطعت تلك المسافة، دونما شعور بخوف أو رهبة بعد أن طرقت أبواب المدينة صرخات الفارِّين من المعركة، وهم يندبون بالويل والثبور باستشهاد المصطفى بزعمهم، ولكنها لم تصدق تلك الصيحات، وكانت على يقين أن أباها وإن أصيب فإن يومه لم يحن بعد، وأنه في حاجة إليها أكثر من حاجته لغيرها من الخلق، ولك أن تقدر هول فجيعتها حينما رأت الدم يغطّي وجهه الشريف الذي اختصره لك المؤرخون بقول ما أشدَّ برودته في ذلك اللافح الذي غطّى وجهها الشريف وكاد يحرق من حوله، ليس غير (فجعلت تعانقه وتبكي، وأحرقت حصيرًا

وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم) كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ٢٥٠ وابن الأثير في كامله ٢/١٥٨ وغيرهما.

وعلى الرغم من منزلة بقيَّة ذريَّته وأهل بيته عنده، إلاَّ أنه خصَّها سلام الله عليهما بكلِّ اهتمامه ورعايته ومحبَّته، وقد تضاعفت تلك العاطفة بعد انتقالها إلى بيت عليٍّ عليه السلام، ثم أخذت ألوانًا أخر بعد أن رزقها الله بسبطيه الحسن والحسين عليهما السلام.

وأنت واقف في أخبار سيرته صلوات الله وسلامه عليه على ما يدل على علو مكانتها من نفسه الشريفة وقربها منه، ولك في ما ذكره ابن النجار في كتابه الدرَّة الثمينة ١٧٩ بسنده ما يشير إلى عظيم تلك المنزلة، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة رضي الله عنها وأطال عندها المكث)، وروى عن ابن عباس (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر قبَّل رأس فاطمة رضي الله عنها)، وقد لازمته يوم اتجه صلوات الله وسلامه عليهما بجيشه لفتح مكَّة، فقد روى ابن هشام في سيرته ٤/٣٣ ما يشير إلى أنها كانت في ركبه، وكانت أقرب إليه من غيرها من النساء، فقد ذكر أن الرسول نزل بأعلى مكَّة عند فتحها، وذهب الإمام علي عليه السلام إلى أخته أم هانئ فوجد عندها اثنين من أحمائها من بني مخزوم ممن أهدر النبيُّ دمه، فأراد قتلهما، فأغلقت أم هاني باب بيتها عليهما وذهبت إلى رسول الله ليجير من أمَّنته، قالت: (فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه)، فرحب بها واستجاب لطلبها، وقد ذكر قريبًا من هذا وزاد عليه الواقدي في مغازيه ٢/٨٣٠، ولذي يهمنا من هذه الرواية أننا رأينا التي تستره الزهراء عليها السلام وليست واحدة من

نسائه على الرغم من وجود بعضهنَّ معه عام الفتح، مما يدلُّ دلالة قاطعة على شديد تعلُّقه بها في ساعات شدَّته.

ويكفيها فخرًا، ويكفي دُرِّيتها سؤددًا أنها سيدة نساء أهل الجنة بإجماع الروايات، أذكر منها ما ذكره البلاذري في أنسابه ٢/٣٤ بسنده من قوله صلوات الله وسلامه عليهما في حقِّها من بين ما قال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة»، وهي «سيدة نساء هذه الأمة أو سيدة نساء العالمين» كما روى ابن سعد في طبقاته ٢/٢٤٨، وروى أيضًا أنه صلى الله عليه وآله وسلَّم أخبرها أنها «سيدة نساء أهل الجنَّة بعد مريم بنت عمران»، وروى ابن حجر في مطالبه ٤/٦٧ برقم ٣٩٧٨ عن حذيفة قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصليت معه المغرب، ثم قام فصلى حتى صلى العشاء ثم خرج فأتبعته، فقال: « مَلَكٌ عرض لي فاستأذن ربَّه يسلم عليَّ ويبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة »، وقد رواه أيضًا النسائي في سننه ٥/٩٥، وقاربه الحاكم في روايته عن حذيفة أيضًا في المستدرك ٣/١٤٩ الذي روى قوله صلوات الله وسلامه عليه: «نزل ملك فاستأذن الله أن يسلم علي لم ينزل قبلها فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »، ولعلَّ في هذا الوسام كفاية لمستزيد.

بل إن منزلتها في الآخرة عجبًا تقفز له قلوب محبيها فرحًا، فقد روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤٩١ برقم ٣٨٤ بسنده عن أمير المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وآله وسامًا يبيِّن لك عظم مقامها في يوم الحشر العظيم، وهو مقام لم يتهيَّأ لأحد من الخلق، قال: « إذا كان يوم القيامة، قيل: يا أهل الجمع غضُّوا أبصاركم حتى تمرَّ فاطمة بنت رسول الله. فتمرُّ

وعليها رَيطَتان خضراوان »، وهو أيضًا في مستدرك الحاكم ١٥٣/٣، ومناقب ابن شهرآشوب ١٠٧/٣ وغيرهما، وأنت واقف على كثير غير هذا في كتب الحديث والسير في حقّها سلام الله عليها.

ولك أن تتصوَّر تربيتها الرساليَّة وعمق إيمانها بنبوَّة أبيها واحترامها له من رواية ذكرها ابن شهراشوب في مناقبه ١٠٢/٣ ضمن عشرات من أوسمتها التي ذكرها وهو قولها عليها السلام: (لمّا نزلت ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ هِبْتُ رسول الله أن أقول له: يا أبه، فكنت أقول: يا رسول الله، فأعرض عنّي مرَّة واثنتين وثلاثًا، ثمَّ أقبل عليَّ فقال: «يا فاطمة، إنها لم تنزل فيك، ولا في أهلك، ولا في نسلك، أنت منّي وأنا منك، إنما نزلت في أهل الجفاء والغلظة من قريش أصحاب البذخ والكبر، قولي: يا أبه، فإنها أحيى للقلب، وأرضى للربِّ»)!.

ولست بصدد تعداد محاسنها، كما لست بصدد عرض صفاتها وأخلاقها وعبادتها وعلمها وبلاغتها، وطاعتها التي أهلتها أن تكون أم أبيها وريحانته التي يشمُّ فيها رائحة الجنة كلما اشتاق إليها، الجنَّة التي دخلها حينما أعرج به إلى السماء صلوات الله عليه، وأكل من بعض ثمارها، فكانت بضعة منها على ما ورد في بعض الأحاديث، ولك أن تعود إليها بسندها ومصادرها في كتاب فاطمة الزهراء أم أبيها السابق الذكر ١٧ -٢١.

كما لست بصدد الحديث عن عصمتها ومكانتها، ولكني أحببت أن أشير هنا إلى أن الله سبحانه يوم اختارها من بين النساء ومنحها من الشرف ما لم يمنحه لغيرها لابد أن تكون جديرة به من بين نساء العالمين، وبسبب من ذلك السؤدد وشّحها نبينا الكريم صلوات الله عليه بأوسمة ما امتازت بها سيدة

أخرى تسيَّدت بها، فهي أحب أهله إليه، وهي الصادقة، وهي بشارة الله لرسوله، وهي بضعة منه، وروحه التي بين جنبيه، ويتعدى الأمر كل حدود التميُّز حينما يقول صلوات الله عليه عنها: من آذاها فقد آذى رسوله، ومن آذى رسوله فقد آذى الله، وهي خير أهل الأرض عنصرًا وشرفًا وكرمًا، وهي التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، وهي التي أحصنت فرجها فحرَّمها وذريتها على النار، وهي فاطمة التي فطمها الله وفطم من أحبها من النار كما روى الإمام الرضا عليه السلام في صحيفته ٤٥، وهي الصديقة، المباركة، الطاهرة، الزكية، الراضية، المرضية، المحدثة، الزهراء.

ومما رواه كل من البخاري ومسلم في حقّها قوله صلوات الله وسلامه عليه: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني»، ومن مثل قوله: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويسرني ما سرها»، وقد خرَّج هذا الحديث برواياته المختلفة محمد فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء ١٨٤ -١٨٧، ومن بين رواياته التي ذكرها ما رواه أحمد في مسنده «فاطمة مُضْغة منِّي يقبِضُني ما قَبَضَها ويبسُطُني ما بسطها، أوَإنَّ الأنساب يوم القيامةِ تنقطعُ غير نسبي وسَبَبي و صهري»، وكان النسائي قد روى في سننه الكبرى ٩٧/٥ عن مسور بن مخرمة إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن فاطمة بضعة منِّي من أغضبها فقد أغضبني»، وعشرات الأحاديث الأخر التي زين بها الباحثون في سيرتها كتبهم ومقالاتهم.

كانت عليها السلام أشبه خلق الله مشية برسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى صاحب المطالب ٦٩/٤ برقم ٣٩٨٥ عن الشعبي، عن بعض

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالت : (أرسلني النبي صلى الله عليه وسلم إلى فاطمة فجاءت تمشي مشية أبيها).

ولقد شهدت السيدة عائشة بأنها ما رأت أحدًا قط أصدق منها غير أبيها، كما روى ابن حجر في مطالبه ٤/٧٠ برقم ٣٩٨٦ عن عمرو بن دينار الذي قال : (قالت عائشة : ما رأيت أحدًا قط أصدق من فاطمة غير أبيها، وكان بينهما شيء، فقالت : يا رسول الله، سلها فإنها لا تكذب)، وشهدت أيضًا يوم ذكر عليٌّ عليه السلام عندها فقالت كما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/ ٢٨٧ : (ما رأيت أحدًا أحبَّ إلى سول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا رأيت امرأة أحبَّ إليه من امرأته).

يوم فكّر المرتضى بالزواج

وطبيعيٌّ أن يفكّر المرتضى حين جاوز الحلم بكثير، بل جاوز العشرين بامرأة يسكن إليها، وتملأ بيته بالدفء والسَّكينة، ويغلب على الظن أنّه يوم فكّر انتصبت الزهراء بقامتها الفارعة أمامه، فتذكر لهوها ولعبها وابتسامتها المشرقة يوم كان يلاعبها في بيت أبيها، ولا شكّ أنه التفت في أثناء مرافقتها رفقة الركب الفاطمي المهاجر من مكّة إلى المدينة إلى خفرها وحيائها وعبادتها، وما كانت سيرتها ومنزلتها بغائبة عنه، فهو أقرب خلق الله إلى بيت أبيها، وها هي الآن تتدفّق حيوية وشبابًا.

ولكن كيف والحياء يمنعه من التقدُّم لخطبتها، وفوق هذا لابدَّ لكلِّ زيجة من مهر، قلَّ أو كثُرَ، ولابدَّ له من حفلة إملاكٍ كما هي عادة القوم التي أيَّدتها السُّنَّة، وهو لا يملك من حطام الدنيا حتى حطامها، ولابد أنه كان على بيِّنة من أن أبا الزهراء اعتذر لكبار الصحابة الذين تقدَّموا لخطبتها، وإذا كانت كتب السيرة تذكر أن هذا وذاك من الصَّحابة شجَّعوا المرتضى على التقدُّم لخطبتها، فإني لا أستبعد أيضًا أن أمَّةً من الهاشميَّات حدَّثنه أيضًا بأمر التقدُّم لخطبتها، وفي مقدمتهنَّ أمه فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها، ولكن ما أصعب الرحيل لابن عمِّه بمطلبه ذاك، فإن تربية المصطفى غرست في نفسه ألوانًا من الحياء، فكيف والحياء الذي ما بعده حياء طلب يد الزهراء، وماذا سيكون موقفه إن اعتذر المصطفى له كما اعتذر من غيره؟ ثم ماذا سيكون موقفه إن سأله عن المهر الذي يقدِّمه بعد المهور التي قدَّمها هذا وذاك ممن سبقوه؟

ويغلب على ظنّي أنه كان على بيِّنة أن أمرها ليس بيد أبيها، وعلى أيّة حال فقد قرَّر ركوب الصَّعب، ولكن كيف؟!.

لا شكَّ أنه، وضع نصب عينيه أول ما وضع موقعه من نفس المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الرغم من أنه كان على يقين أنه لن يرفض له أيَّ طلب فإنَّ العجب يكاد يأخذني كلَّ مأخذ كيف استطاعت قدماه حمله إلى بيت النبيّ، ويخيَّل إليّ أن ليالٍ مرَّت أخذته كلَّ مأخذ وهو يفكّر في طريقة يلج بها ذلك الصَّعب، ولا أشكُّ في أنه يوم طرق الباب، كاد قلبه يطفر من حنايا أضلعه خجلاً وقلقًا، بل لعلَّ وقوفه ذاك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم كان من أصعب المواقف التي مرَّت به عليه السلام، بل إنه طرقه مرتين كما ورد في بعض الروايات فمنعه الحياء من مفاتحته صلوات الله وسلامه عليهما، ثم تحامل في المرَّة الثالثة وتقدَّمَ، وهو يتعثَّر بمشيته، تكاد الكلمات تخنقه من شدَّة الحياء، ولا أظنَّه استطاع رفع رأسه أمام أخيه الذي كان على بيِّنة من أمره، فأشفق عليه في الثالثة، إذ قال له صلوات الله وسلامه عليه: «يا علي، ألك حاجة؟»، قال: نعم يا رسول الله. قال: «لعلَّك جئت خاطبًا؟»، قال: نعم يا رسول الله.

إرادة الله في زواج

بسيدة النساء

«ما زوَّجتك إلاَّ بأمر السماء»

بلغت الصدِّيقة الطاهر مبلغ النساء، وشاع الدفء في جسدها النضر فشعت بهاء ونورًا وبركة في المحيط المدني، ولا شكَّ أنها كانت محل تطلع كبار الصحابة للزواج منها، ولا سيما أنها ابنة الرسول المصطفى، لذا فإن من الطبيعي أن تكون مطمحًا لكل صاحب شأن ومكانة في مدينته صلوات الله وسلامه عليه، ولكنها لم تكن كبقيَّة النساء، لأن زواجها مرتبط بإرادة سماويَّة لا علاقة لها بمال أو جاه أو منزلة أو صحبة، وكان النبي ينتظر الأمر الموعود لتزويجها، ولا أدلَّ على ذلك من قوله لأبي بكر وعمر حينما خطباها: إنه ينتظر فيها القضاء، فقد روى البلاذري في أنسابه ٢/ ٣٠ عن الواقدي بإسناده، وعن هشام بن محمد الكلبي قالا: (كان أبو بكر خطب فاطمة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أنتظر بها القضاء، ثم خطبها عمر، فقال له مثل ذلك)، ونقل فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي ١٧٣ عن علباء بن أحمر اليشكري (أن أبا بكر خطب فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا بكر أنتظر بها القضاء»، فذكر ذلك أبو بكر لعمر، فقال له عمر: ردَّك يا أبا بكر، ثم إن أبا بكر قال لعمر: اخطب فاطمة إلى النبي ﷺ فخطبها فقال له مثل ما قال لأبي بكر «أنتظر بها القضاء»، فجاء عمر إلى أبي بكر فأخبره فقال له: ردَّك يا عمر، ثم إن أهل عليٍّ قالوا لعليٍّ:

اخطب فاطمة إلى رسول الله، فقال: بعد أبي بكر وعمر؟ فذكروا له قرابته من النبي ﷺ فخطبها فزوَّجه النبي صلى الله عليه وسلم فباع علي بعيرًا له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين، فقال له النبي ﷺ: «اجعل ثُلُثينِ في الطِّيب وثُلُثًا في المتاع».

ولا أظن أن أبا بكر وعمر أصابا في اعتقادهما، لأن امرأة اختارها الله أن تكون سيدة نساء العالمين لابد من زواجها بمن يرتضيه ربُّ العالمين لهذه المنزلة، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلّم على ما روى اليعقوبي في تاريخه ٤١/١ «ما أنا زوجته، لكنَّ الله زوَّجه» يوم تحدَّث جماعة من المهاجرين بأمر زواجها من علي بعد أن خطبوها منه فردَّهم، فليست سيدة النساء تتزوج بأي طارق لعاطفة أو رغبة من رغبات النفس أو العقل، لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق الأمين قبل الدعوة، فكيف يكون بعدها، وقد ربَّاه الله.

وعلى الرغم من كون عليٍّ أحبّ الرجال إليه كما ذكرت السيدة عائشة وغيرها، بل كان أحبَّ خلق الله إليه في بعض الأحاديث كما بيَّنت ذلك أثناء الحديث عن أوسمته عليه السلام في كتابنا السابق الذكر، فإنه ما كان يستطيع صلى الله عليه وآله وسلم أن يزوجها له لولا أمر الله، ولو شاء لزوجها له قبل أن يطلبها، وإذا كانت هيبته وهيبتها عليهما السلام تمنع صحابته من خطبتها، فلا شكَّ في أنه كان بإمكانه أن يزوجها من يشاء من فتيان المهاجرين أو الأنصار من أصحاب الثراء والجاه، ولقد ذهبت بعض المصادر أن السماء احتفت بزواجها من الإمام قبل الأرض، ومن بين سيل الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر في ترجمة الإمام بتاريخه ٢٥٥/١ عن جابر بن عبد الله أن أم أيمن

دخلت (على النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي، فقال لها: «ما يبكيك لا أبكى الله عينيك؟» قالت: بكيت يا رسول الله أني دخلت منزل رجل من الأنصار قد زوَّج ابنته رجلاً من الأنصار، فنثر على رأسها اللوز والسكر، فذكرت تزويجك فاطمة من علي بن أبي طالب ولم تنثر عليهما شيئًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا تبك يا أم أيمن فوالذي بعثني بالكرامة، واستخصَّني بالرسالة ما أنا زوجته، ولكن الله زوجه، ما رضيت حتى رضي علي، وما رضيت فاطمة حتى رضي رب العالمين. يا أم أيمن إنَّ الله لما زوج فاطمة من علي أمر الملائكة المقربين أن يحدقوا بالعرش فيهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وأمر الجنان أن تزخرف فزخرفت، وأمر الحور العين أن تتزين فتزيَّن، وكان الخاطب الله، وكان الملائكة الشهود، ثم أمر شجرة طوبى أن تنثر فنثرت عليهم اللؤلؤ الرطب مع الدر الأبيض، مع الياقوت الأحمر، مع الزبرجد الأخضر، فابتدر الحور العين من الجنان يرفلن في الحلي والحلل يلتقطنه ويقلن: هذا من نثار فاطمة بنت محمد. فهن يتهادينه بينهن إلى يوم القيامة».

ويكفيها منزلة أن من بين أوسمة المرتضى أنه «كفء الزهراء» الذي أتينا على ذكره في مبحث أوسمته عليه السلام، ومما يوثّق ما ذهبنا إليه قول اليعقوبي في تاريخه ١/٣٦١: (كان جماعة من المهاجرين خطبوها إلى رسول الله، فلمَّا زوَّجها عليًّا قالوا في ذلك، فقال رسول الله: «ما أنا زوَّجته ولكنَّ الله زوَّجه»)، ولعل خير ما يعضد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٦٤: «أتاني ملك فقال: يا محمد إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام ويقول: قد زوجت فاطمة من علي فزوجها منه..».

أهازيج الفرح

كانت فرحة أبي الزهراء عارمة لا حدود لها فعمَّا قريب ستزفُّ ريحانته، وكان القضاء قد أذن قبل أن يطرق عليٌّ البابَ، وتحقَّق ما تمنَّاه المصطفى من زواج أحبِّ الخلقِ إليه من الرجال بأحبِّ الخلقِ إليه من النساء.

وقد احتفى ابن عساكر في الأجزاء الخاصَّة بترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب في تاريخه ١/ ٢٤٨ -٢٧١ بهذا الزواج احتفاء عظيمًا، فذكر ثمانية وعشرين رواية عن كبار الصحابة والتابعين وأهل البيت، كبريدة، وأبي نجيح، وأبي هريرة، وأبي أيوب الأنصاري، ومعقل بن يسار، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، والسيدة عائشة، وفاطمة الزهراء، وأسماء بنت عميس، وابن عباس، وعلي الهلالي، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم، بعضها يذكرها من غير طريق زيادة في توثيقها، ولا يتوانى في بعضها من ذكر أبسط فروق الروايات، وجميع أحاديثه مرويَّة بسلاسل معتبرة عند علماء الحديث، وجميع ما ذكرناه من أحاديث كرامة هذا الزواج مثبتة عنده، بل إن هناك أحاديث أخر حول مباركة الله سبحانه وتعالى هذا الزواج وأمره به ما يريك العجب العجاب من كيفيَّة احتفاء ملائكة السماء به، ومشاركتهم في زفافها، وما هيَّأ الله لهما في جنانه من قصور تبهر أنظار أهل الجنان، وروى من الأحاديث أيضًا ما يصعب على العقل إدراكه أو تخيّله، أكتفي بذكر رواية منها عن علي الهلالي عن أبيه قال: (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكاته التي قبض فيها فإذا فاطمة عند رأسه، قال: فبكت

حتى ارتفع صوتها؛ فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طرفه إليها فقال: «حبيبتي فاطمة ما الذي يبكيك؟» قالت: أخشى الضيعة من بعدك. فقال: «أما علمت أن الله أطلع إلى الأرض إطلاعة، فاختار منها أباك فبعثه برسالته، ثم أطلع إطلاعة فاختار منها بعلك، وأوحى إليَّ أن أنكحك إيَّاه. يا فاطمة، ونحن أهل البيت قد أعطانا الله سبع خصال لم يعط أحد قبلنا، ولا يُعطَى أحد بعدنا، أنا خاتم النبيين، وأكرم النبيين على الله، وأحبُّ المخلوقين إلى الله أبوك، ووصيّي خير الأوصياء، وأحبهم إلى الله بعلك، وشهيدنا خير الشهداء وأحبهم إلى الله، وهو حمزة بن عبد المطلب، وهو عمُّ أبيك وعمُّ بعلك، ومنا من له جناحان أخضران يطير في الجنَّة مع الملائكة حيث شاء، وهو ابن عمِّ أبيك، وأخو بعلك، ومنا سبطا هذه الأمة، وهما ابناك الحسن والحسين، وهما سيدا شباب أهل الجنَّة، وأبوهما والذي بعثني بالحقِّ خيرٌ منهما، يا فاطمة، والذي بعثني بالحقِّ إن منهما مهدي هذه الأمَّة إذا صار الدنيا هرجًا ومرجًا، وتظاهرت الفتن، وتقطَّعت السبل، وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم صغيرًا، ولا صغيرًا يوقِّرُ كبيرًا، فيبعث الله عند ذلك منهما من يفتح حصون الضلالة وقلوبًا غلفًا، يقوم بالدين في آخر الزمان كما قمت به في أوَّل الزمان، ويملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جورًا، يا فاطمة، لا تحزني ولا تبكي، فإن الله أرحم بك، وأرأف عليك منِّي، وذلك لمكانك منِّي، وموضعك من قلبي. وزوَّجك الله زوجك وهو أشرف أهل بيتي حسبًا، وأكرمهم منصبًا، وأرحمهم بالرعيَّة، وأعدلهم بالبريَّة، وأبصرهم بالقضيَّة، وقد سألت ربِّي عزَّ وجلَّ أن تكوني أول من يلحقني من أهل بيتي»، قال عليٌّ: فلمَّا قبض النبي صلى الله عليه وسلم لم تبق فاطمة بعده إلاَّ خمسة وسبعين يومًا حتى ألحقها الله به صلى الله عليه وسلَّم).

عقد الفضائل

وحاشا بيت النبوَّة أن يهتمَّ بمهر كثر أو قلَّ، بل ما دخل المال يومًا في حسابه، ولا أدلَّ على ذلك من قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم الذي ذكره ابن النجار في كتابه الدرَّة الثمينة في أخبار المدينة ١٧٩ «ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جَناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ»، وما دخل أيضًا في حساب المرتضى عليه السلام الذي كان عجيبة في سخائه وجوده ومحبته الفقراء والمساكين، أما مناسبة حديثه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فذكر ابن النجَّار في المصدر السابق عن محمد بن قيس: (كان النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم إذا قدم من سفر أتى فاطمة رضي الله عنها، فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرَّة في سفر فصنعت فاطمة رضي الله عنها مَسْكَتين -سوارين - من وَرِقٍ (وقلادتين) وقرطين وسترًا لباب بيتها لقدوم أبيها وزوجها، فلمَّا قدم صلى الله عليه وسلم ودخل إليها، وقف أصحابه على الباب، فخرج وقد عُرِفَ الغضب في وجهه، ففطنت فاطمة رضي الله عنها إنما فعل ذلك لمَّا رأى المسكتين والقلادتين والستر، فنزعت قرطيها وقلادتيها ومسكتيها، ونزعت الستر وأنفذت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت للرسول: قل له: تقرأ عليك ابنتك السلام، وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله. فلما أتاه قال: «قد فعلت فداها أبوها» ثلاث مرَّات) ثم ذكر: صلى الله عليه وآله علاقتهم أهل البيت بالدنيا، وللحكاية رواية أخرى في صحيفة الإمام الرضا

عليه السلام٨٢ ، أو أنها حكاية أخرى فقد ورد فيها عن علي بن الحسين عليه السلام قال : (حدثتني أسماء بنت عميس قالت : كنت عند فاطمة جدَّتِك إذ دخل رسول الله وفي عنقها قلادة من ذهب كان علي بن أبي طالب اشتراها لها من فيء له ، فقال النبي : «لا يغُرَّنَّك الناس أن يقولوا بنت محمد ، وعليك لبس الجبابرة» ، فقطعتها وباعتها واشترت بها رقبة فأعتقتها ، فسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك) ، واقترب من هذه الرواية الحاكم في المستدرك ٣/ ١٥٢في روايته عن ثوبان ، وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه ٢٦/١ وابن الأثير في أسده ٦٠٠/٣ أثناء ترجمة المرتضى عليه السلام أنه (كان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده ؛ وفيه أنزل ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ❖ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ ؛ وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلاَّ أربعة دراهم ؛ فتصدَّق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهارًا ، وبدرهم سرًّا ، وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيه : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً ؛ وهي من قصص التربية الإسلامية التي لم يخل منها كتاب من كتبها ، وروي عنه أنه كان يسقي بيده نخل قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت يداه ، ويتصدَّق بالأجرة ، ويشد على بطنه حجرًا من شدَّة الجوع.وقال الشعبي : (كان أسخى الناس ؛ كان على الخلق الذي يحبه الله : السخاء والجود ، ما قال : لا لسائل قطُّ).

لذا لم يكن غريبًا حينما سأله المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما إن كان عنده ما يقدمه مهرًا للزهراء أن يعتذر له بإملاقه ، بل يدور في يقيني أنه سكت ولم يجبه لأنه أعرف الناس به وبما يملك ، فكان مهرها عليها السلام درعه التي هي درع الإسلام ، ذكر ابن قتيبة في عيونه ٦٩/٤ عن (محمد بن

علي أبي طالب أن عليًا أصدق فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلّم بدنًا من حديد - البدن: الدرع - قال محمد: وأخبرني ابن أبي نَجيح قال: بلغني أن البدن الذي تزوج عليه فاطمة كان ثمنه ثلاثمائة درهم)، وذكر في عيونه ٤/ ٦٩ أيضًا عن ابن أبي نجيح عن أبيه (أن عليًا عليه السلام قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدرع فباعها بأربعمائة وثمانين درهمًا، وزوجني عليها)، وذكر البلاذري في أنسابه ٢/ ٣١ عن ابن أبي نجيح عن أبيه أيضًا، عن رجل سمع عليًا يقول: (أردت أن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته، فقلت: والله مالي شيء، ثم ذكرت صلته وعائدته، فخطبتها إليه. فقال: وهل عندك من شيء؟ قلت: لا. قال: فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟ فقلت: هي عندي. قال: فأعطها إياها)، ثم وثق البلاذري روايته برواية عن عكرمة قال: (استحلَّ علي فاطمة ببدن من حديد).

وذكر ابن حجر في مطالبه ٤/ ٧٠ رقم ٣٩٨٩ أن علباء بن أحمر قال: (قال علي بن أبي طالب: خطبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة: فباع علي درعًا له وبعض ما باع من متاعه، فبلغ أربعمائة درهم وثمانين درهمًا، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل ثلثه في الطيب).

أشهر جفاف في الإسلام

أشارت كتب التاريخ إلى غير مهر من مهور نساء الخلفاء والملوك والمشاهير من الأثرياء وغيرهم، وما بذل فيها من مال يفوق التصور، وما نفق على موائدها، وما زالت محلَّ نقد بسبب الإسراف الذي لا يوجد ما يدعو إليه، ولا ترتضيه السنَّة، ولا الخلق الإسلامي القويم، ولكنَّ مهر الزهراء سيبقى الأشهر بين كل المهور التي تفاخرت بها النساء منذ كان الإسلام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومازال القدوة الحسنة التي يدور الحديث حولها، والبركة التي يتحدثون عنها في مناسبات الخطبة أو الإملاك.

وستبقى درع المرتضى الحطمية أشهر درع ليس بسبب كونها درع الإسلام وحصنه المنيع، وإنما بسبب تلك المناسبة الجليلة التي شهدها المسلمون في شهر ذي الحجَّة من السنة الثانية للهجرة، فقد كانت كلَّ المهر الذي قدَّمه الإمام يوم خطب سيدة نساء العالمين، وقد وصفها ياقوت في معجم بلدانه ٣١٥/٢ فقال: (وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه درع يقال له الحطميَّة، وهي من الدروع الثقيلة العريضة).

أما جهازها فما هو بالجهاز الذي تحسده عليه أفقر فتيات الصحابة ولا أكثرهن ثراء وغنًى، فليس فيه إلاَّ الخزف والليف والصوف، ولمَّا نظر إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال: «اللهم بارك لقوم جلَّ آنيتهم

الخزف»، ومنذ ذلك اليوم المبارك أصبح ذلك الجهاز المثل الأعلى الذي يضرب في كلّ مناسبة خطبة، ويقتدي به صالح المسلمين في تزويج بناتهم.

وذهبت بعض الروايات إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد اقتطع مبلغًا من المهر للطيب وآخر للوليمة، وأشرك كبار الصحابة في شراء جهاز العروسين، إذ كلّف عمارًا وأبا بكر وبلالاً بشراء ما يصلح للبيت المبارك، وأي جهاز كان؟! ليس أكثر من قميص، وخمار، وقطيفة سوداء خيبرية، وسرير من سعف النخيل، وفرشين من كتان مصر حشو أحدهما من للّيف، وحشو الآخر من الصُّوف، وأربع مرافق -مخادٌ- من أدم الطائف، وستر من صوف، وحصير هجري ورحًا للطحن، وسقاء من أدم، ووعاء لغسل الثياب من نحاس، وقعب للبن، وشنٌّ -قربة صغيرة- للماء، ومطهرة، وجرَّة خضراء، وكيزان خزف، ونطع من أدم وعباءة، وقربة ماء. ذلك كان جهاز الزهراء كما ذكر محمد جواد مغنية في موسوعة الإمام علي ٣٥٤ وحسين الشاكري في كتابه فاطمة الزهراء ١٠٦ -١٠٧، ولا يختلف كثيرًا عن الذي ذكره الدكتور الميلاني في كتابه فاطمة الزهراء أم أبيها ٦٢ - ٦٣ عن مصادره، ولك أن تراه في ترجمتها سلام الله عليها في طبقات ابن سعد ١٩/٨ -٢٤ ومسند أحمد، وسنن النسائي ٣٣١/٣ - ٣٣٢، وأنساب البلاذري ٣١/٢، وهو فيها أقل مما ذكر بكثير، وحدَّثت عائشة وأم سلمة فقالتا كما ذكر ابن ماجة في كتاب النكاح: (أمرنا رسول الله أن نجهِّز فاطمة حتَّى نُدْخِلَها على عليٍّ، فعمدنا إلى البيت، ففرشناه ترابًا ليِّنًا من أعراض البطحاء، ثمَّ حشونا مِرفَقَينِ لِيفًا فنفشناه بأيدينا، ثمَّ أطْعمنا تمرًا

وزبيبًا وسقينا ماء عَذبًا، وعمدنا إلى عُودٍ فَعَرَضناه في جانب البيت ليُلْقَى عليه الثوب، ويُعَلَّقُ عليه السِّقاء، فما رأينا عُرْسًا أحسنَ من عُرْسِ فاطمة).

ما بين الإطلاق والنفاق

«هي أحبُّ إليَّ منك وأنت أعزُّ عليّ منها»

ترى أيَّةُ فرحةٍ دخلت المدينة في عقد عقده رسول الله صلوات الله وسلامه عليه طرفاه عليٌّ وفاطمة أحبّ الخلق إليه؟، لا يختلف اثنان في أن ذلك اليوم كان من أهم الأحداث التي شهدتها المدينة، وأكثرها بهجة وسرورًا وغبطة، ولا أظن أنَّ الأمَّة شهدت حدث سرور يماثله من بعد ومن قبل.

وكما اختلفت روايات القدماء في جميع أحداث عصر فجر الإسلام بما في ذلك أحداث البيت النبوي الشريف، فقد اختلفت أيضًا في تاريخ ذلك الرباط المقدَّس، فقد روى الطبري في تاريخه ٢/ ٤٢٠ عن محمد بن عمر عن أبي بكر ابن عبد الله بن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه كان (في صفر لليال بقين منه تزوج علي بن أبي طالب عليه السلام فاطمة رضي الله عنها) من السنة الثانية للهجرة، ثم عاد فروى في ٢/٤٨٥ -٤٨٦ بالسند نفسه، ولكن ليس عن ابن عمر، وإنما عن الواقدي، وفيها: (أن علي بن أبي طالب عليه السلام بنى بفاطمة عليها السلام في ذي الحجَّة على رأس اثنين وعشرين شهرًا)، ولم يبتعد أبو الفرج في مقاتله ٥٩ عن رواية الطبري، ولكنه كان أكثر وضوحًا، فقال: (وكان تزويج علي بن أبي طالب إياها في صفر بعد مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وبنى بها بعد رجوعه من غزوة بدر)، وقريب منهما ما ذكره المسعودي في مروجه ٢/٢٨٩ إذ قال: (وكان تزوج عليّ بن أبي طالب

لفاطمة عليهما السلام بعد سنة مضت من الهجرة، وقيل: أقل من ذلك)، ثم قال في ٢/٢٩٥: (وفي آخر سنة اثنتين من الهجرة كان دخول علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وكان أكثر وضوحًا في كتابه التنبيه والإشراف ٢٠٢ فقد ذكر أنه في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة كانت غزوة ودَّان والأبواء، ثم قال: (وفي هذا الشهر تزوج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنهما)، ثم ذكر في ٢٠٧ منه أن النبيَّ خرج في ذي الحجة من السنة الثانية في طلب أبي سفيان، في غزوة السويق التي سبق الحديث عنها في الجزء الأول، ثم قال: (وفي هذا الشهر بنى علي بفاطمة عليهما السلام)، ولكنه لم يذكر أكان ذلك بعد الغزوتين أم قبلهما، أما اليعقوبي -وهو أقدم من تعرَّض لهذا الأمر بين مصادري - فذكر في تاريخه ١/٣٦٠ أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: (زوجها من علي بعد قدومه بشهرين) وأغلب الظنِّ أنه أراد عقد الإملاك، ولم يرد البناء، كما يفهم من مجرى حديثه، فقد سبقه حديث عن وصول رسول الله إلى المدينة ونزوله على أبي أيوب الأنصاري، ثم قال: (وقدم عليٌّ بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله، وذلك قبل نكاحه إيَّاها، وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى قدم فنزل مع رسول الله، ثم زوجها رسول الله من علي بعد قدومه بشهرين، وقد كان جماعة من المهاجرين خطبوها إلى رسول الله، فلمَّا زوجها عليًّا قالوا في ذلك، فقال رسول الله: ما أنا زوجته، ولكنَّ الله زوَّجه).

أما ابن عساكر في تاريخه ٣/١٢٨ فقد ذكر روايتين، الأولى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى وتذهب إلى أن زواجه عليه السلام كان لثلاث بقين من شهر صفر في السنة الثانية من الهجرة، والثانية عن محمد بن عمر بن علي عن

أبيه قال: تزوج علي فاطمة عليهما السلام (في رجب بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها مرجعه من بدر).

وقال الذهبي في عهده ٦٢٨: (يروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال لابنته فاطمة: «قد زوَّجتك أعظمهم حِلمًا، وأقدمهم سِلمًا، وأكثرهم علمًا»)، ولا أظنك تختلف معي في أنه صلوات الله وسلامه عليه، لم يخبرها بذلك على سبيل الإعلام، فهي الزهراء أعلم خلق الله بابن عمها بعد أبيها، وإنما على سبيل الإشادة والاعتزاز بفضل المرتضى ومكانته السامية، ولعلَّ هناك من دسَّ سُمًّا بعسل حسدًا للزهراء وزوجها في ذلك اليوم، فقال الرسول ما فَقَأ عين شانئيهما.

ويشوب الغموض رواية ذكرها النسائي تذهب إلى أن زواجه كان بعد خمسة أشهر من مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد نقل محمد فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي ١٧٥ عنه في كتاب النكاح عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال: (تزوَّج علي بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم في رجب بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلّم المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها مرجعه من بدر، وفاطمة يوم بنى بها علي بنت ثماني عشرة سنة)، وذهب محمود شاكر بعيدًا جدًّا في تقدير سنة ولادتها وزواجها، ودخول الإمام بها إذ قال في كتابه علي بن أبي طالب ٤١٥: (ولدت فاطمة وقريش تبني البيت، وذلك قبل النبوَّة بخمس سنين، وبذا يكون علي، رضي الله عنه، أكبر منها بخمس سنين أو أربع. تزوَّج بها عليٌّ رضي الله عنهما، في ذي القعدة من السَّنة الثانية للهجرة بعد معركة بدر بشهر ونصف تقريبًا، وبنى بها بعد وقعة أحد، أي بعد سنة من الزواج)، وفي

الوقت الذي لم يكن فيه معنيًّا بتوثيق أهمَّ حدث سرور وفرح في الإسلام، عنَى بذكر فرية خطبة الإمام لابنة أبي جهل -التي سنقف عليها مطوَّلاً من بعد - وأرسلها إرسال المسلمات، وأشار في هامشه إلى ورودها في كتاب سير أعلام النبلاء، من دون وقوف أو مناقشة لروايتها فيه.

وقد فصَّل القول في تاريخ هذه المناسبة العظيمة الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٢/٩٦ -٩٨، وعاد فتحدث في ٢/٢١١ -٢١٩ عن زفافها وما دار في ليلته وصباحه، وذكر ما ورد حول تلك الأيَّام من روايات عن أهل البيت وغيرهم، ورجَّح أن زواجه عليه السلام كان في الليال بقين من صفر، وأن زفافه كان في أوَّل ذي الحجَّة، أي أن الفاصل بين الإملاك والزواج قارب عشرة أشهر.

ولقاء من هذا النوع لابد للسماء أن تحتفي به لأنه عرسها كما كان عرس الأرض، ويغالبني يقين أن المسلمين ما مرَّ عليهم يوم فرح وسرور يماثله منذ يوم الله ذاك، ولن يمرَّ إلى قيام يوم الدين، ولك أن تتخيَّل ما شاء لك التخيُّل عما يمكن أن يخلق من عليٍّ عليه السلام في مستقبلات أيامه، رجل هو من أحب خلق الله إلى الله بعد رسوله يتزوج بامرأة سيدها الله على نساء العالمين، تقف من أمامهما ومن ورائهما كلُّ قيم السماء الفاضلة التي استأمن عليها الله رسوله الحبيب كي يشيعها بين خلقه إلى يوم الحشر العظيم، فكانا بذريتهما حبل الله المتين الذي من تمسك به لن تعرف الضلالة طريقًا إليه.

اليوم الموعود

أما زفافها عليها السلام فكان حدثًا ولا كبقيَّة الأحداث شاركت فيه أمهات المسلمين وكبار الصحابيَّات، ولا شكَّ أن في مقدِّمة من شارك فيه من

النساء أختاها زينب وأم كلثوم، وأمهات المؤمنين، بل قل: شاركت فيه المدينة عن بكرة أبيها، فليس كلَّ يوم تزفُّ فيه فتاة كالزهراء، ويزفُّ فيه فتًى كعليٍّ، ويوم أَوْلَمَ الإمام عليه السلام لم يتخلّف أحد من المهاجرين والأنصار عن أعظم وليمة عرفها الإسلام.

وذكر ابن حجر في مطالبه ٦١/٤ برقم ٣٩٦١ (عن عبد الله بن عمرو بن هند الجملي: لما كانت ليلة أهديت فاطمة إلى علي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُحدث شيئًا حتى آتيك» قال: فلم يلبث رسول الله أن اتبعهما فقام على الباب فاستأذن، فدخل فإذا علي معتزل عنها فقال: «إني قد علمت أنك شهاب الله ورسوله»، فدعا بماء فمضمض، ثم أعاده في الإناء ثم نضح به صدرها وصدره وسمَّت عليهما ثم خرج من عندهما)، وقريب من هذا وزاد عليه أحمد في فضائله عليه السلام ١١٧ برقم ٨١ عن أسماء بنت عميس ومما زاده: قولها: (ثم خرج ثم قال لعلي: دونك أهلك ثم ولّى في حجرة فما زال يدعو لهما)، وليس بخافٍ عليك أنه في طلبه أراد مباركة الزواج الذي باركته السماء، والدعوة لهما بالخير والبركة وبالنسل الطيب الذي كان ينتظره منهما صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وروى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٦٩ برقم ٢٠٠ عن أبي نجيح قريبًا من هذا وزاد عليه أن المرتضى قال لأخيه صلوات الله وسلامه عليهما: (يا رسول الله أنا أحبُّ إليك أم هي؟ قال: «هي أحبُّ إليَّ منك، وأنت أعز عليّ منها».

الروايات عن أسماء بنت عميس

وتصرح بعض الروايات بحضور أسماء بنت عميس ليلة زفاف الزهراء عليها السلام، من مثل رواية ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين في تاريخه

٢٦٦/١ عن أبي بريدة المدني: (لما كانت ليلة أهديت فاطمة إلى علي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحدثي شيئًا حتى أجيء». فجاء حتى قام على الباب فقال: «أثمَّ أخي؟»، فخرجت إليه أم أيمن فقالت: أخوك وزوَّجته ابنتك؟! فدعا عليًّا ودعاها، فقامت وإنها لتعثر، ثم قال لها: «أي بنيَّة إني لم آل أن أزوِّجك أحبَّ أهلي»، قالت: ثم دعا بمخضب - قال حماد: هو تور من حجارة -من ماء فدعا فيه، ثم أمر أن يصبَّ عليه بعضه، وعليها بعضه، قالت أسماء: ثم قال لي: «أجئت مع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرمينها؟» قالت: فدعا لي)، وهي من الروايات التي تردَّدت في كتب المحدِّثين، وقد ونقلها بأوسع مما روى أبو بريدة الشيخ اليوسفي في موسوعته ٢١٢/٢ -٢١٥ عن مناقب الخوارزمي ومناقب الكنجي، وإذا كان الكنجي قد حسنها فإنه رأى أن ذكر أسماء فيها غير صحيح، لأنها كانت مع زوجها جعفر بن أبي طالب عليه السلام في الحبشة، وقدم بها يوم فتح خبر سنة سبع، ورأى الكنجي أن ورود اسم بنت عميس خطأ من الرواة، (نعم يصحُّ أنَّ أسماء المذكورة في هذا الحديث التي حضرت في عرس فاطمة إنما هي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاري، وهي لها أحاديث عن النبي)، أما الإربلّي فقد رأى أن التي حضرت هي سلمى أخت أسماء، وأنَّ ما روي عنها اختلط بما روي عن أختها أسماء لشهرتها، أو أن الأمر وقع بسبب سهو أحد الرواة، وذكر اليوسفي أيضًا أنَّ الإربلّي في كتابه كشف الغمَّة، استبعد حضور أسماء زفاف فاطمة على الرغم من تظاهر الروايات على حضورها، ورأى أن التي حضرت هي أختها سلمى بنت عميس زوجة حمزة بن عبد المطلب، وعلّق الشيخ بقوله: (ولنا أن نجمع

فنقول بحضور الاثنين)، أي سلمى وأسماء بنت يزيد، وذكر أيضًا أنَّ محقق كتاب البحار رجَّح توجيه الكنجي لأن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية كان يقال لها خطيبة النساء، وكانت تكنَّى بأم سلمة، فما روي في قصَّة زفاف الزهراء عن أم سلمة إنما هي أسماء بنت السكن، ولا يراد بها أم سلمة التي تزوجها النبيُّ بعد حين.

ولم تكن هذه الرواية الوحيدة التي ذكرت فيها أسماء بنت عميس، وإنما وردت في أخرى قابلة للحسنين عليهما السلام كما جاء في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٧٣، ويبدو أن المراد بأسماء هنا أيضًا أسماء بنت يزيد السابقة الذكر وكانت ولاَّدة خاطبة كما ذكر الشيخ في موسوعته ٢٤٩/٢، ولا يمنع أن يختلط ما روي عن أختها سلمى أيضًا برواياتها بسبب شهرتها ومكانتها، وقد يكون بسبب قرب أسماء بعد رجوعها من الحبشة من الزهراء خاصَّة حدث هذا الخلط بين اسمها واسم أختها، واسم أسماء بنت يزيد الولاَّدة، ولا يستبعد أنَّ الأمر قد اختلط على بعض الرواة، فنسبوا روايات غيرها إليها للسبب نفسه. وعلى الرغم مما رواه ابن سعد في طبقاته ٢٨٠/٨ حول قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة، من أنهم (قدموا من الحبشة ليالي خيبر)، وتواتر الروايات على وصوله المدينة في السنة السابعة من الهجرة، بعد النصر المبين الذي حقَّقه النبي في معركة خيبر فإني قد أرى هجرة أسماء من الحبشة إلى المدينة قبل زوجها، وبعد أن استقرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها، وقد يأخذ بيد هذا الرأي إلى اليقين كثرة ما يروى عنها من أخبار في كتب الحديث المعتبرة قبل قدوم زوجها، بل ألمح في روايتين ذكرهما ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أن جعفر عليه السلام حينما عاد من الحبشة

كان لوحده، قال في معارفه ٢٠٥ (وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة يوم فتح خبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أدري بأي الأمرين أنا أسر: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر»، وقال في ١٦١ (ويوم خبر في سنة ست. وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة. وقدم عليه جعفر بن أبي طالب من عند النجاشي)، فأنت تلحظ أنه ليس في الروايتين ما يشير أن قدومه كان بصحبة أهل بيته، فإن صحَّ هذا الظن الذي لم أقف على رواية تدعمه تكون هجرتها في السنة الأولى أو الثانية.

غياب فاطمة أم الإمام من مشاهد العقد والزفاف

واللافت للنظر أن أم الإمام لم يرد لها أيُّ ذكر لا في مناسبة عقد الزواج ولا في مناسبة الزفاف ولا في ولادة الحسنين في كتب المؤرخين، ولكن الذي لا شكَّ فيه أن فرحتها كانت لا يسعها وصف فهي ابنة أعز الناس إليها، بشَّرت بميلاده عمَّه أبا طالب يوم ولد، واحتضنته، وكان أقرب إلى قلبها من بنيها، ولعلَّ فرحتها بذلك العقد المقدَّس لا تقلُّ عن فرحة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ويغلب على ظنِّي أن السبب في ذلك يعود إلى تقدُّمها في السنِّ، ولعلَّها في تلك المناسبة قد قاربت الثمانين، ولعلَّ الرواة لم يلتفتوا إلى هذا الأمر، ولا أدلَّ على شديد علاقتها بالنبي الكريم أنها يوم قاربتها المنيَّة أوصت إليه، ولم توص لأحد من أبنائها فقبل وصيتها كما ذكر أبو الفرج في مقاتله ٢٧، وحين انتقلت إلى الرفيق الأعلى نزل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى قبرها كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢٩٣/٢، ونام فيه، ووضع خده المقدس على ترابه، كي يخفف عليها ضغطة القبر، بل إن الحاكم في مستدركه ١٠٨/٣ روى بسنده أن الرسول كبَّر عليها سبعين تكبيرةً.

ويغلب على الظنّ أن الزهراء سلام الله عليها لم تكن لوحدها في البيت الذي انتقلت إليه، وإنما شاركتها فيه أم الإمام رضوان الله عليها، أو أنها كانت تقيم على بعد خطوات منها، إذ من المستبعد أن تقيم لوحدها أو عند أحد من أقاربها مع وجود الإمام في المدينة، ويبدو أنها كانت تعين الزهراء في بعض شؤون البيت الخارجيَّة، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ٢/٢٩٤ والذهبي في عهده ٦٢١ عن أبي البختري عن علي عليه السلام، قال: (قلت لأمي اكفي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك الطحن والعجن).

النعمان في بيت علي

نزل المرتضى مع أخيه صلوات الله وسلامه عليهما في بيت أبي أيوب الأنصاري رضوان الله عليه حينما قدم المدينة، ويبدو أنه بقي فيه قرابة السَّنة، فلما أراد الزواج طلب منه المصطفى أن يتحوَّل إلى دار خاصَّة به، فأصاب منزلاً لا يقترب كثيرًا من منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فبنى فيه بفاطمة عليها السلام، ولكن رسول الله لم يستطع بعدها عن داره، فأخبرها برغبته وقال لها: «إني أريد أن أحوِّلَك إليَّ»، ويبدو أنه لم يكن هناك من مكان تتحوَّل إليه إلاَّ دار حارثة بن النعمان، الذي سبق أن طلب منه النبيُّ أن يتحوَّل من داره من قبل كي يسكن فيها، فتحوَّل عنها، وقد استحى الرسول أن يطلب ذلك منه ثانية، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قد تحوَّل حارثةُ عنَّا حتى قد اسْتَحْيَيْتُ منه»، وما أن سمع الأنصاري الطيب برغبة النبي في انتقال ابنته إلى جواره حتى جاء إليه وقال: (يا رسول الله، إنه بلغني أنَّك تُحَوِّل فاطمة إليك، وهذي منازلي، وهي أسقب -أقرب- بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله، المال الذي تأخذ منِّي أحبُّ لي من الذي تدع، فقال رسول الله: «صدقت، بارك الله عليك»، فحوَّلها إلى بيت حارثة، كما نقل فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي ١٧٥ عن النسائي في كتاب النكاح.

وحين ذكر ابن النجَّار (ت ٦٤٣هـ) بيت الزهراء عليها السلام في كتابه الدرَّة الثمينة في أخبار المدينة ١٧٨ قال: (كان خلف بيت النبي صلى الله عليه

وسلّم عن يسار المصلّي إلى الكعبة، وكان فيه خوخة إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلّم، وكان صلى الله عليه وسلّم يأتي بابها كلَّ صباح فيأخذ بعضادتيه، ويقول: «الصلاة الصلاة، إنما يريدُ اللهُ ليذهِبَ عنكم الرجسَ أهل البيت ويطّهركم تطهيرًا»، وكيف لا يعلن عن طهرهم صلوات الله وسلامه عليه وهم كسفينة نوح بالنسبة لأمته فقد روى الحاكم في المستدرك ١٤٩/٣ أن أبا ذرٍّ قال (وهو آخذ بباب الكعبة: من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»، ورحمة الله وحدها تنجي أمته فكم منَّا استطاع الركوب في تلك السفينة، وروى أيضًا عن ابن عباس قوله صلوات الله عليه: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا في حزب إبليس».

حكايات من الدف والإيثار

وما أن حلَّ النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة حتى شعَّ بيت فاطمة بنور مولد الحسن عليه السلام، ولا أشك في أن مولده كان أكبر فرحة دخلت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستقبله بسرور عارم، وسمَّاه باسم ولد هارون عليه السلام، وعقَّ عنه بكبشٍ، وما أن درج حتى جاء الحسين عليهما السلام في أوليات شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة، فتلقَّفه النبي بالفرحة التي استقبل فيها أخاه الحسن، وسمَّاه باسم ولد هارون عليه السلام أيضًا، وتصدَّق بزنة شعره فضَّة كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/ ٣٢، وتابعه في تاريخ مولده عليه السلام الطبري في تاريخه ٢/ ٥٣٧، وأبو الفرج في مقاتله ٥٩، وعلقت بالحسين عليهما السلام في تلك السنة بذلك الشهر على ما ذكر الطبري، وذكر أنه قيل: لم يكن بين ولادتها الحسن، وحملها بالحسين إلاَّ خمسين ليلة، وقال ابن الأثير في كامله ١٧٦/٢ عن ولادته أنها كانت في جمادى الأولى في قول.

وورد في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٧٣ بإسناده عن الباقر عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام أن أسماء بنت عميس قبَّلت الزهراء بالحسنين، وسبق أن ترجَّح أن اسمها التبس باسم أسماء بنت زيد القابلة، وجاء في السند المذكور: (فلما كان بعد حول من مولد الحسن ولد الحسين، فجاء النبي فقال: «يا أسماء هلمِّي هات ابني»، فدفعته إليه في خرقة بيضاء،

فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ووضعه في حجره وبكى، قالت أسماء: قلت: فداك أبي وأمّي، ممّ بكاؤك؟ قال: «من ابني هذا»، قلت: إنه ولد الساعة. قال: «يا أسماء تقتله الفئة الباغية من بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي»، ثم قال: «يا أسماء لا تخبري فاطمة بهذا فإنها قريبة عهد بولادة»، ولعلّ في تسميتهما عليهما السلام باسم ولدي هارون خير دلالة على المعنى الذي أراده صلوات الله وسلامه عليه يوم وشّح المرتضى بوسام المنزلة الذي تقوّل به المتقوّلون ما تقوّلوا، ورأوا فيه ما لم يرده الرسول الكريم، فهو أخوه ووزيره وخليفته من بعده، له من النبي ما لهارون من موسى عليهما السلام، وروى ابن عساكر في ترجمة الحسن عليه السلام بتاريخه ١٧ (عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «سميتهما باسم ابني هارون -يعني الحسن والحسين - شبر وشبير»)، وهما أول من سميا بهذين الاسمين إذ لم يعرفا في الجاهليّة، وروى ابن عساكر في المصدر السابق أيضًا عن عمران بن سليمان (الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنّة لم يكونا في الجاهليّة).

ولم يسلم الإمام حتى في تسمية ولديه عليهما السلام، فقد روى البلاذري في أنسابه ٣٢/٢ وابن كثير في البداية والنهاية ٤٤٢/٥ وغيرهما أنه سمى كلّ واحد منهما حربًا، وأنّ النبيّ غيّر اسميهما، وتستطيع أن ترى البون بين رواية البلاذري وغيره، حينما تطّلع على ما جاء في رواية عن أسماء بنت عميس في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٧٣ حيث ذكرت أن الرسول قال لأخيه سلام الله عليهما: «بأيٍّ شيء سمّيت ابني هذا» فقال: (ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله، وقد كنت أحبُّ أن أسمّيه حربًا، فقال النبي

صلى الله عليه وآله: «وأنا لا أسبق باسمه ربّي عزَّ وجلّ»، فأخبره جبريل صلوات الله عليه أن الله سبحانه يقول: (عليٌّ منك بمنزلة هارون من موسى، ولا نبيّ بعدك، فسمّ ابنك هذا باسم ابن هارون)، ويبدو أن رواية البلاذري أرادت إظهار حبِّ الإمام للحرب والقتال، في الوقت الذي لم يبادر إلى تسميتهما، ولا فكّر في ذلك، وإن صحَّت الرواية عن الرضا عليه السلام، فيكون مجرَّد اقتراح للتفاؤل بأن يكون ولداه حربًا على أعداء رسول الله، وليس بدافع حبِّه للحرب كما شاء بعضهم تصوير الأمر، ويبدو أن ابن كثير قد لمح صعوبة قبول الرواية التي ذكرها فقال: (وورد في بعض الأحاديث أن عليًّا سمَّى الحسن أولاً بحمزة، وحسينًا بجعفر فغيَّر اسميهما رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ولا أشكُّ في أن كلا الروايتين تبتعدان عن الواقع، إذ ليس عليًّا هو الذي يُسَمِّي ولديه بلا علم جدِّهما صلوات الله عليهم. وقد يكون قد رغب بتسمية أحدهما باسم عمِّه حمزة، والآخر باسم أخيه جعفر بسبب شديد محبته لهما، ولكنَّ أمر الله فوق كلِّ رغبة، ولاسيما أن أمره سبحانه وتعالى كان وسامًا للإمامين عليهما السلام.

أما البيت المبارك فكان محاطًا برعاية لا حدود لها من رسول الرحمة، وكان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يغمره بعطفه وحنانه، وبشفقته، ويخصُّه بليال ينام بها فيه، على الرغم من التزامه بملايلة بيوت زوجاته أمهات المؤمنين، وكثيرًا ما كان يزوره، فيغترف أهل بيته من فيض علمه، وسماحته، وخلقه الربَّاني القويم، وذكر ابن النجار في كتابه الدرَّة الثمينة ١٧٩ بسنده (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة رضي الله عنها وأطال عندها المكث)، وروى عن ابن عباس (كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم إذا قدم من سفر قبَّل رأس فاطمة رضي الله عنها)، وروى ابن حجر في مطالبه ٦٩/٤ برقم ٣٩٨٣ عن أبي فاختة قال: (قال علي: زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبات عندنا والحسن والحسين نائمان، فاستسقى الحسن، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قربة يعتصرها في قدح، ثم جاء يسقيه، فتناول الحسين يشرب، فمنعه وبدأ الحسن، فقالت فاطمة: كأنه أحبهما إليك؟ قال: « لا، ولكنه استسقى أول مرة» ثم قال: « إني وإياك وهذين»، وأحسبه قال: « وهذا الراقد»، يعني عليًّا « يوم القيامة في مكان واحد» - «من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، والحديث بسند ذهبيٍّ في كتاب فضائله عليه السلام لأحمد ٤٠٦ برقم ٣١٠، وهي رواية تدلل على مدى تعلُّقه بذلك البيت على الذي لا يفصله عن بيته الشريف غير جدار لعله من سعف النخيل.

ولقد نال الحسنان أوسمة كثيرة من جدِّهما أذكر منها بعض ما اشتهر على سبيل المثال لا الحصر، منها ما رواه ابن ماجة في مسنده ٨٤/١ برقم ٥/١١٨ عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة وأبوهما خيرٌ منهما»، ولقد روى ابن عساكر جمهرة كبيرة من الأحاديث النبوية الشريفة بحقِّ أصحاب الكساء يمكن مراجعتها في تاريخه، وروى ابن حجر في مطالبه ٧٠/٤ برقم ٣٩٨٨ بسنده إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الحسن بن علي فقال: « اللهم إني أُحِبُّه فأحبَّه»، وروى برقم ٣٩٩٠ عن جابر قال: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة فلينظر إلى الحسين بن علي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقوله)، وروى عن أبي هريرة برقم ٣٩٩٢ (أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال في الحسن والحسين: «من أحبَّني فليحبَّ هذين»، ومن الفخر الذي ما بعده فخر ما رواه ابن عساكر في ترجمة الحسن بتاريخه ١٢١ عن ابن عباس قال: حمل رسول الله الحسن والحسين عليهما السلام على عاتقيه بعد أن فرغ من صلاة العصر وقال: «أيها الناس ألا أخبركم بخير الناس جدًّا وجدَّة؟ ألا أخبركم بخير الناس عمًّا وعمَّة؟ ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالة؟ ألا أخبركم بخير الناس أبًا وأمًّا؟ الحسن والحسين جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجدَّتهما خديجة بنت خويلد، وأمهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وأبوهما علي بن أبي طالب، وعمهما جعفر بن أبي طالب، وعمتهما أم هانئ بنت أبي طالب، وخالهما القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وخالاتهما زينب ورقيَّة وأم كلثوم بنات رسول الله».

وقد أثبتت الفئة الباغية مدى تعلقها برسول الله وحبها للحسنين، فسمَّت الأول، وقتلت الثاني مع أهل بيته في أبشع جريمة ارتكبت في الإسلام يوم الطفّ، وقد روى ابن حجر في مطالبه برقم ٣٩٩١ (أن أم سلمة قالت: سمعت الجنَّ تنوح على الحسين)، وكأنهم لم يسمعوا بقوله صلوات الله وسلامه عليه الذي رواه الإمام الرضا عليه السلام في صحيفته ٤٤ «تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم الحسين، فتتعلق بقائمة من قوائم العرش، فتقول: يا ربّ احكم بيني وبين قاتل ولدي..»

أما خبر محبتهما وأبيهما وأمهما فقد رواه الترمذي في سننه بحديث رقمه فيه ٣٨١٦ ص ٣٠٥، وتابعه ابن الأثير فرواه في أسده ٦٠٦/٣ بالإسناد نفسه (عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب: أن النبي صلى الله عليه وسلَّم أخذ بيد حسن

وحسين وقال: « من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة »)، وقد رواه ابن عساكر في ترجمة الحسن بتاريخه ٥٣ بعين السلسلة الذهبيَّة عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم.

ومما رواه أبو هريرة في مستدرك الحاكم ١٦٧/٣عن مدى تعلق رسول الله بولديه الحسنين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قوله: (كنَّا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله العشاء، فكان يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، وإذا رفع رأسه أخذهما فوضعهما وضعًا رقيقًا، فإذا عاد عادا، فلمَّا صلَّى جعل واحدًا هنا وواحدًا هنا، فجئته، فقلت يا رسول الله ألا أذهب بهما إلى أمهما، قال: لا، فبرقت برقة، فقال: الحقا بأمكما، فمازالا يمشيان في ضوئها حتَّى دخلا).

ثم جاءت زينب عقيلة بني هاشم وتلتها أم كلثوم، ولاشك أن فرحة المصطفى صلوات الله عليه بذلك الدفء الذي ملأ أقطار بيته لا حدود لها، فما كان يترك زيارته في يوم من الأيام، ينعم بضحكات الصغار ولهوهم وعبثهم، أما الحسنان فكانا يدعوانه يا أبه، وكان الحسن يدعو أباه في حياة جدِّه يا أبا الحسين، وكان الحسين يدعوه يا أبا الحسن؛ وأما الحوراءان فما أسعدهما بزيارة جدهما وبعطفه وحنانه، فأعظم به من بيت تلك كرامته عند الله ورسوله.

ولقد أسهب المؤرخون بذكر حكايات عن طعام هذا البيت الروحي الذي كان فوق كلِّ طعام، وأخرى عن زهدهم بمتاع الحياة الذي فاق كلَّ زهد، وبحرص أهله أن يكونوا مثالاً لا شبيه له بين بيوت المسلمين علمًا وعملاً وسيرة، ولقد قرأتَ عن إيثارهم على الرغم من إملاقهم قصصًا وحكايات

مازالت تتداولها كتب التربية الإسلامية، من مثل ما رواه البلاذري في أنسابه ٣٨٢/٢ عن أبي هريرة أنه قال: (جعت فلما صليت المغرب عرضت لأبي بكر فجعلت أستقريه وما أريد بذلك إلا أن يدخلني بيته فيعشيني، فلما بلغ الباب أرسل يدي ودخل، فعرضت لعمر ففعلت مثل ذلك، ففعل بي كما فعل أبو بكر، ثم أتيت عليًّا فاستقرأته، فلما بلغ الباب قال: لو دخلت يا أبا هريرة فتعشيت، فدخلت فقال: يا فاطمة عشي أبا هريرة، فجاءت بجردقة فأكلتها، ثم جاءت بشربة سويق فشربتها، وبلغ ذلك عمر فقال: لئن كنت وليت منه ما ولّي علي كان أحب إلي من حمر النعم. أو قال مما طلعت عليه الشمس)، وعجيب أن يتغيَّر أبو هريرة كلَّ ذلك التغير عن الإمام وأهل بيته عليهم السلام بعد كل الذي رواه عن ذلك البيت المقدَّس فيقول من بين ما قال حين قدم العراق مع معاوية بن أبي سفيان على ما روى ابن أبي الحديد في الشرح ٢٨٥/٣ - ٢٨٦ عن شيخه أبي جعفر الإسكافي عن الأعمش الذي قال: (لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة، فلمَّا رأى كثرة من استقبله من النَّاس جثا على ركبتيه، ثمَّ ضرب صلعته مرارًا، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار والله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن لكل نبي حرمًا، وأن حرمي بالمدينة، ما بين عَير إلى ثور، فمن أحدث فيها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وأشهد أن عليًّا أحدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاَّه إمارة المدينة)، والصواب: (ما بين عَير وأحد) ولعل الغلط من الراوي كما رجح صاحب الشرح، وحقَّ لابن أبي الحديد أن يعقّب على فرية أبي هريرة التي يندى منها

جبين الدهر بقوله: (فأما قول أبي هريرة: أن عليًّا أحدث في المدينة، فحاشا الله كان عليٌّ عليه السلام أتقى لله من ذلك، والله لقد نصر عثمان نصرًا لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب لم يبذل له إلا مثله)، ولا أشك إن صحَّ هذا وغيره عن أبي هريرة في حقِّ الإمام عليه السلام فخصمه هو، وويل لمن خصمه أمير المؤمنين يوم القيامة.

ومن طريف ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/ ٢٨٦ عن شيخه أبي جعفر الإسكافي عن سفيان الثوري بسنده عن عمر بن عبد الغفّار قال: (إن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية، كان يجلس بالعشيقات بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاء شابٌّ من الكوفة فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب: « اللهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه!»، فقال: اللهمَّ نعم، قال: فأشهد بالله، لقد واليت عدوَّه، وعاديت وليَّه، ثمَّ قام عنه).

ومن قصص الإيثار حكاية المسكين واليتيم والأسير الذين اضطروا بيت المصطفى للبقاء على صيام ثلاثة أيّام، ولك أن تقدِّر حال طفلين لمّا يبلغا الخامسة من العمر وقد أبلاً لتوّهما من المرض كيف سيكون حالهما وحال أبيهما وأمهما، وهما على تلك الحال، أما الزهراء فقد كانت في محرابها، وأما علي فكان ما بين مسجد رسول الله وبين تلك العائلة التي تكاد تموت من شدَّة الجوع، فحقَّ لعماد ذلك البيت أن يكون المرتضى، وحقَّ لسيدته أن تكون البتول سيدة نساء العالمين، وحقَّ لملائكة السماء أن تضجَّ من ذلك الإيمان والزهد والإيثار، وكان من عدل الله ورحمته أن ذكَّر البشرية بذلك الدرس الأخلاقي المنقطع النظير فجاء في محكم كتابه في سورة الإنسان إذ قال

سبحانه: ﴿ إِنَّ الْأَبْـرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ❖ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَـا عِـبَادُ اللَّـهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ❖ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُـسْتَطِيراً ❖ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ❖ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِـوَجْهِ اللَّـهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ❖ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيـراً ❖ فَـوَقَاهُمُ اللَّـهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ إلى آخر السورة، ولقد قرأت في كتابه المحكم ما أنزل بحقّه من آيات محكمات في مناسبات كانت فخرًا للإسلام في إيثاره ورحمته وعدله وعلمه، ودرسًا للبشرية على مرّ الحقب والأجيال، وما كان الله سبحانه وتعالى ليذهب عنهم الرجس ويطهرهم ذلك التطهير بسبب قرابتهم لنبيِّه، فما أكثر أقرباء الرسول وخاصَّته، ولكنَّه خصَّهم بما خصَّهم به، لأنهم كانوا أهلاً لذلك التكريم.

وكان من نبل الزهراء عليها السلام أن أبا سفيان يوم قصد بيت الإمام قبل الفتح كي يشفع لقريش عند رسول الله بعد نقضهم صلح الحديبية لم تجبه كما فعلت ابنته أم حبيبة، وقد التفت إلى الزهراء لما يئس من شفاعة المرتضى وقال لها: (وعندها حسن بن علي عليه رضوان الله غلام يدبُّ بين يديها يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيِّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيِّد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنَيَّ ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فالتفت إلى أبي الحسن وقال له: (يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدَّت عليَّ فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنَّك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني

لا أجد لك غير ذلك)، كما روى ابن هشام في سيرته ١٣/٤ -١٤، وقاربه البلاذري في أنسابه ٤٥١/١، وابن الأثير في كامله ٢٤١/٢.

ذلك كان طبع في أهل بيت النبوة حتى مع ألدّ الخصام، لقد قابل أبا سفيان بلين كما قال، ولم يجبهه كما جبهه آخرون حتى ابنته أم حبيبة، ولم يغتنمها فرصة لا هو ولا البتول، فيتدخلان في أمر قد يغضب رسول الله وإن نفّذ لهما جوارهما أو جوار ولدهما الحسن، ولكن هل حفظ بيت أبي سفيان وذريّته لعليٍّ وذريّته عليهم السلام ذلك الموقف من بعد!!

وأنت تقف في سيرته عليه السلام على أحاديث عدَّة بحقّهم لعلَّ في مقدّمتها قوله: « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصَّتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » والوسام المذكور رواه ابن الأثير في أسده ٦٠٦/٣ عن أم سلمة قالت: (إن النبي صلى الله عليه وسلم جلّل عليًّا وفاطمة والحسن والحسين كساءً ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصَّتي».... قالت أم سلمة: قلت: يا رسول الله، أنا منهم. قال: « إنك إلى خير»).

أما اهتمامه بولديه فهي حكاية لا تسعها المناسبة، وقفت عليها أقلام لا تحصى قديمًا وحديثًا، ولعلَّ الله يمنح فرصة فأقف معها مطولاً، تبركًا بسيرتهما، وتقربًا بهما إلى الله.

ومرَّت سنيات نَعِمَتْ فيها البتول بحنان أبيها وعطفه ورعايته، وباحترام ذلك الزوج العظيم ومحبته، ولم يكن ذلك على حساب أحد من المسلمين، فيوم أنهكها التعب من كثرة الطحن وأعمال البيت ورعاية الأطفال، وأنهك الإمام جلب الماء أيضًا حتى اشتكى صدره اقترح عليها عليه السلام أن تطلب من أبيها خادمًا يساعدها، فذهبت إليه، وسلّمت عليه، ولكنها رجعت من

حيث أتت لأن حياءها عليها السلام منعها من مصارحته بطلبها، فلمَّا علم المصطفى لم يفضّلها على غيرها من فقراء المسلمين، على الرغم من شديد شفقته عليها، ويقينه بحاجتها إلى من يساعدها، ولاسيما أنها منذ أن تزوجت كانت ما بين حمل وولادة ورضاعة في حياة أبيها، وكان على يقين أنها وزوجها ليسا من طلاّب رفاهية أو دنيا، فهو يعلم عن قيامهما الليل ما لا يعلمه الآخرون، وهو على بيِّنة من كثرة صيامهما في النهار، وزهدهما في الدنيا، بل إن زهد زوجها كان عجيبة لا يصدقها عقل، لقد كان بإمكانه أن يكون من أكثر الصحابة مالاً وثراء، فمازال سيفه يقطف رؤوس الفرسان، ولكنه كان يأنف من سلبهم.

لقد ذهبت إلى والدها، ولكن شممها وإباءها منعاها من مصارحته، وكيف تصارحه وهو أعرف الخلق بحالها وحال بيتها الذي هو بيته، ولعله لولا شديد الحاجة وشدَّة ضغطها ما تقدمت خطوة إلى ذلك الطلب، ولكنه صلى الله عليه وآله علم، إلاّ أنَّ عدالته غلبت حبَّه وشفقته فقال لهما: «هل أدلكما على خير لكما من حمر النعم؟»، فقال الإمام نعم يا رسول الله، قال: «تكبيرات وتسبيحات وتحميدات مائة حين تريدا أن تناما فتبيتا على ألف حسنة، ومثلها حين تصبحان فتقومان على ألف حسنة»، (فقال علي: فما فاتتني منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلاّ ليلة صفّين، فإني نسيتها حتى ذكرتها من آخر الليل فقلتها)، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٥/٨ والبلاذري في أنسابه بسنده ٣٨٥/٢ وأبو نعيم في حليته ٦٩/١ بسنده، وابن كثير في بدايته ٣٩/٥ بسنده أيضًا، ويبدو أنه صلوات الله عليه علّمهما دعاء آخر غير التسبيحات، فقد روى الترمذي في كتاب الدعوات عن

أبي هريرة أنه صلى الله عليه وآله وسلّم قال لها: «قولي: اللهمَّ ربَّ السَّماواتِ السَّبع، وربِّ العرشِ العظيمِ، ربُّنا وربُّ كلِّ شيءٍ أنتَ آخِذٌ بناصيتِهِ، أنت الأوَّلُ فليسَ قبلكَ شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليسَ بعدكَ شيءٌ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ الباطِنُ فليس دونكَ شيءٌ، اقضِ عنِّي الدَّينَ وأغنِني من الفقر».

أما تعلقها بأبيها صلوات الله وسلامه عليهما فقد وقفنا على لمحات منها هنا وهناك، وقد رأينا كيف أنها لم تطق صبرًا على البقاء في بيتها يوم خرج الرسول بجيشه إلى معركة أحد، فخرجت منه رفقة بعض النسوة، فالتقت أباها صلوات الله وسلامه عليهما ووجهه الشريف مخضَّب بدمه كما ذكر ابن هشام في سيرته ٦٤/٣، والواقدي في مغازيه ٢٤٩/١ الذي فصَّل القول عن ذلك اللقاء بعيد معركة أحد إذ قال: (وخرجت فاطمة في نساء، وقد رأت الذي بوجهه صلى الله عليه وسلم، فاعتنقته وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اشتدَّ غضب الله على قوم أدموا وجه رسوله! وذهب علي عليه السلام يأتي بماء من المهراس، وقال لفاطمة: أمسكي هذا السيف غير ذميم. فأتى بماء في مِجَنَّة، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب منه -وكان قد عطش- فلم يستطع، ووجد ريحًا من الماء كرهها فقال: هذا ماء آجن. فمضمض منه فاه للدم في فيه، وغسلت فاطمة الدم عن أبيها، ولمَّا أبصر النبي صلى الله عليه وسلم سيف علي عليه السلام مُخْتَضِبًا قال: إن كنت أحسنت القتال فقد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف، وسيف أبي دجانة غير مذموم....فخرج محمد بن سلمة يطلب مع النساء ماء، وكن جئن أربع عشرة امرأة؛ منهن

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى ويداوينهم ...وجعل الدم لا ينقطع، وجعل النبي صلى الله عليه وسلّم يقول: لن ينالوا منّا مثلها حتى تستلموا الركن. فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ - وهي تغسل الدم، وعلي عليه السلام يصبُّ الماء عليها بالمجنّ -أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم)، وتعلمك الرواية أن خروجها كان بعيد هزيمة المسلمين ولعله كان قبل انتهاء المعركة، إذ إنها حينما وصلت لم يكن نزف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد توقف، وخبر ما فعلته من الأخبار التي لا تحتاج إلى توثيق، فقد أخرجه البخاري، والترمذي، وابن ماجة، وأحمد، وابن سعد من غير وجه كما ذكر محمد عبد الباقي في كتابه مناقب علي ١٨٧ - ١٨٩.

وإذا كان ذاك موقفها في تمريض أبيها، فهل لك أن تقدِّر موقف زوجها وقد أثخنته الجراح، كيف استطاع نسيان آلام جراحه، لا أشكُّ في أن فرحته بنجاة أخيه أنسته ما به من آلام، فما عاد يشعر إلاّ بجراح أخيه صلوات الله وسلامه عليهم فما أكرمهم عند الله، وأيّة عاقبة خبَّأها الله لهم في دنياهم وآخرتهم، ومما جاء في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٧١ -٧٢ ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام أيام حفر الخندق وكان المسلمون في قحط وضائقة: (كنّا مع النَّبي صلى الله عليه وآله في حفر الخندق، إذ جاءت فاطمة ومعها كِسرةٌ من خبز فدفعتها إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: النبي صلى الله عليه وآله «ما هذه الكِسرة؟» قالت: قُرصًا خبزته للحسن والحسين جئتك منه

بهذه الكسرة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أما إنّه أوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث».

وكان الرسول لا ينقطع عن زيارتهم، فإن انقطع فلابد أن يمرَّ على باب دارهم أثناء خروجه لصلاة الصبح كي ينبههم بحلولها فيقول: «الصلاة أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»، كما روى البلاذري في أنسابه ٣٥٣/٢ بسنده عن أنس بن مالك، ولا أظنهم كانوا في حاجة إلى تنبيه، ولكنها المحبَّة والعطف والإيثار، ولفت الأنظار إلى منزلتهم، فمازال محراب فاطمة قائمًا إلى اليوم في بيتها بجوار قبر النبي الكريم لا يبتعد عنه إلا بضعة أمتار كما وصفه الدكتور المهندس حاتم عمر طه في غير موضع من كتابه الكوكب الدرّي، وما كانوا يصبرون على غيبته إن غاب، ولعلَّ الحسنين كانا كظلّه يوم درجا وتمكّنا من ساقيهما عليهما السلام، فهما إما معه في مسجده عند صلاته أو على ظهره عند سجوده، وهما في حجره كلّما فرغ منها يشمهما كريحانتين، أو كلما دخل ذلك البيت الطاهر، وتراهما يدرجان بين يديه هنا وهناك عند خروجه، ولقد ذكر ابن عساكر في تاريخه أثناء ترجمة علي والإمام الحسن عليهما السلام عشرات الأحاديث كلّها تدور حول تلك الرعاية.

وبسبب حاجة بني عبد المطلب عامَّة، وبيت علي خاصَّة أكثر من غيرهم من المهاجرين والأنصار فقد خصَّهم وغيرهم من الخمس وسهم ذوي القربى لمّا فتح الله عليه صلى الله عليه وآله خيبر وغيرها من الحصون بسيف عليٍّ عليه السلام، فأعطى ابنته فاطمة مئتي وسق، ولعلي مائة وسق، ولأمه فاطمة بنت أسد أربعين وسقًا مما فاء الله عليه من وادي (خاص)، كما أعطى

فاطمة خمسًا وثمانين وسقًا من قمح خيبر، وهو على يقين أن ما خصَّ به بيت عليٍّ سيكون شركة بينه وبين فقراء المدينة ومساكينها، وقسَّم الباقي على بقية بني عبد المطلب ونسائهم، وبقية المسلمين، ويبدو أن عثمان بن عفان قد شهد تلك القسمة التي ذكرها ابن هشام في سيرته ٣/٣٦١ -٣٦٥ وكتبها بخطِّه، وذكر ابن هشام أيضًا أن آخر شهدها مع عثمان وسماه عبَّاسًا، ولا أدري من هو.

أهل البيت

في السنة العاشرة قدم وفد نصارى نجران بأربعة عشر رجلاً من أشراف نصاراهم إلى المدينة لمقابلة النبي صلوات الله وسلامه عليه ذكرهم ابن سعد وذكر حكايتهم في طبقاته ١/٣٥٧ -٣٥٨ فيهم عبد المسيح الكندي الملقَّب بالعاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم، والسيِّد، وهو صاحب رحلتهم، فلمَّا دخلوا عليه بزي الرهبان، سلَّم عليهم، ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم ما تيسَّر من الذكر الحكيم، ولكنَّهم أبوا تصديقه، فدعاهم إلى المباهلة بعد إنكارهم ما قال لهم، واتَّفقوا على يوم آخر تتم فيه الملاعنة فنزل قوله تعالى ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾، فحضر ومعه المرتضى والزهراء والحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم وقال لهم: «اللهم هؤلاء أهلي»، كما روى الترمذي في سننه برقم ٣٨٠٨ وأحمد في مسنده برقم ٢٨٨ وابن الأثير في أسده ٤/٦٠٠ والذهبي في عهده ٦٢٧ عن سعد بن أبي وقاص، وبحديث المباهلة وآيتها

تحدد تمامًا المقصود بأهل بيت المصطفى صلوات الله عليهم أجمعين، فقد انحصرت بمن خرج معه منهم.

وذكر الشيخ اليوسفي في موسوعته ٥٤٧/٣ عن مصادره أنَّ سبب الدعوة إلى المباهلة يعود إلى أن وفد نجران سألوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى ما يدعو؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وإني رسول الله، وأنَّ عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويُحدث»، فقالوا: فمن أبوه؟ فنزل عليه الوحي فقال: قل لهم: «ما تقولون في آدم عليه السلام؟ أكان عبدًا مخلوقًا يأكل ويشرب وينكح؟» فسألهم النبي ذلك فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فَبُهِتُوا وبقوا ساكتين.

فأنزل الله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ❖ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ❖ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «فباهلوني، فإن كنت صادقًا أُنزِلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذبًا نزلت عليَّ» فقالوا له: أنصفت! فتواعدوا للمباهلة، ورجعوا إلى منزلهم)، وجاء موعد المباهلة، وإذا برسول الله ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، فسأل الوفد عنهم فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيُّه وختنه علي ابن أبي طالب وتلك ابنته الزهراء، وهذان الحسنان، وحينما رأى الوفد ما رأى أحسَّ بخطورة الأمر، وعواقب المباهلة، وقالوا: (قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك)، فصالحهم رسول الله على ما صالحهم عليه، وما كاد عبد المسيح والسَّيِّد يعودان حتى عادا

وأعلنا إسلامهما، فأنزلهما النبي دار أبي أيوب الأنصاري كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٣٥٨.

وذكر ابن الأثير في كامله ٢/٢٩٣ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج لمباهلتهم ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين قالوا عند رؤيتهم: (هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه).

من قالات أعداء أهل البيت

عجيب أن تتقوَّل الفئة الباغية عن بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما تقوَّلت، وهي على يقين أن ما قاله الرسول بحقه لم يكن استجابة لرغبة شخصية منه صلوات الله وسلامه عليه فحسب، وإنما هي رغبة معززة بتوجيه ربَّاني جعل من أهل هذا البيت حبله المتين الذي على الأمة أن تتمسك به لمعرفة طريق الهدي والصواب إلى دنياهم وآخرتهم.

فقد تقع أحيانًا بين البتول وبين زوجها المرتضى سلام الله عليهما ما يقع بين الزوج وزوجته من دلٍّ لا يصل إلى التهاجر مهما حاولت بعض الأقلام أن تصوِّره، وقد يظهرانه إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم، فلا يَفْهَمُ منه إلاَّ حاجتهما إلى مزيد من عطفه وحنانه، من مثل ما رواه ابن سعد في طبقاته ٢٦/٨ عن حبيب بن أبي ثابت قال: (كان بين علي وفاطمة كلام، فدخل رسول الله فألقى له مثالاً فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة فاضطجعت من جانب، وجاء علي فاضطجع من جانب، فأخذ رسول الله بيد علي فوضعها على سرَّته، وأخذ بيد فاطمة فوضعها على سَرَّته، ولم يزل حتى أصلح بينهما، ثمَّ خرج، قال: فقيل له: دخَلْتَ وأنت على حالٍ، وخرجتَ ونحن نرى البشرَ في وجهك، فقال: «وما يمنعني وقد أصلحتُ بين أحبِّ اثنين إليَّ».

وكما لم تسلم سيرة الإمام عليه السلام من ألسنة الفئة الباغية، لم يسلم بيته المبارك أيضًا، وكان لابد من أحاديث وروايات تُلْبس الواقع غير لَبوسه البهي كي تظهره بصورة غاية في التشويه، لا تتناسب مع مكانة الإمام ولا مع

تربيته، ولا مع مقام الزهراء سلام الله عليهما، ولم تسئ إلى بيت النبوَّة المقدس قدر إساءتها للأفواه النتنة التي وضعتها في ذلك الإطار أو حرَّفتها.

فقد ذهبت بعض المصادر إلى أنها عليها السلام بكت ليلة زفافها، أو في اليوم التالي لزواجها، وأن رسول الله سألها عن سبب بكائها فسكتت ولم تجب، لكي لا يقال: إنها يوم زُفَّت إلى الإمام لم تكن راضية بذلك الزواج، وأنها قبلت به ترضية لخاطر أبيها، أو أنها كانت مجبرة عليه، وكلا التفسيرين لا ينسجم مع عصمة الزهراء، ولا مع رسالة أبيها صلوات الله وسلامه عليه، ولكن في الغالب أن كلَّ بكر تهدى إلى بيت زوجها تبكي في ليلة زفافها، بسبب شعورها أنها تفارق حياة وتقدم على أخرى، فكيف بمشاعر الزهراء وهي تفارق بيت أبيها، وأيّ أبٍ هو صلوات الله وسلامه عليهما، وقد عزت بعض المصادر بكاءها إلى ما بعد زفافها لأنه زوَّجها فتى لا مال له، بل روى أحمد في مسنده برقم ٢٩١ عن معقل بن يسار قال: (دخلنا على فاطمة عليها السلام فقال لها: «كيف تجدينك؟» قالت: والله لقد اشتدَّ حزني، واشتدَّت فاقتي، وطال سقمي. قال: «أوما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلمًا، وأكثرهم علمًا، وأعظمهم حلمًا»، وروى البلاذري في أنسابه ٣٥٤/٢ مناسبة أشدَّ فظاعة من المناسبة التي ذكرها رواة الخبر عن معقل، وهي فيه عن أبي إسحاق قال: (قالت فاطمة: يا رسول الله زوجتني ضخم البطن أعمش العين)، ولعنة الله على من كذب على الزهراء وزوجها عليهما السلام، فأين كانت من ذلك الأعمش - بزعم الرواية - وهو أكثر الناس دخولاً وخروجًا على رسول الله، بل (كانت لعلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلة لم تكن لأحد من الناس) كما روى البلاذري بسنده عن أبي

سعيد الخدري في أنسابه ٢/ ٣٥١، ولا أدري كيف اختار صاحب الرواية العمش لأبي السبطين، وهو صقر المسلمين، في جميع مواقعهم مع رسول الله، وعينه صلوات الله وسلامه في جميع المدلهمَّات.

وإذا كان هذا الوسام من أوسمة الإمام العظيمة التي لا يستطيع أن يشاركه فيه أحد المسلمين، فإن مناسبته التي ذكرها أحمد بن حنبل عن ابن يسار فيها نظر كثير، لأن الزهراء عليها السلام يوم رضيت بعليٍّ بعلاً كانت من أكثر الناس معرفة به وبوضعيته المادية، فقد تربَّت معه، وشبَّت وهو في بيت أبيها، نهلا سوية من منهله العذب، وتأدَّبا بأدبه، ولاشك أنه كان معها عليه السلام في كثير من ساعات لهو الطفولة وعبثها يناغيها ويضاحكها، ويأنس بها وتأنس به، ولاشك أنه أول فتًى وقعت عينها عليه، وشعرت به، وهي على بيِّنة تامَّة بسلوكه، فما كان من الذين يحتفظون بدرهم أو دينار، بل ما كان المال يدخل في دائرة اهتمامه إلاَّ أن يساعد به فقيرًا أو محتاجًا، أما خلقه فهو خلق أبيها صلوات الله عليهما وسلامه، وطعامه عين طعامه وكذا لباسه، كما سبق تفصيل ذلك في غير مبحث من مباحث الجزأين الأول والثاني من الكتاب، بل كان يعمل أحيانًا عند هذا أو ذاك كي يطعم أخاه من تمر المدينة حينما يحاصرهما الجوع، وليست سيدة النساء التي تقسم بالله أمام أبيها لتعرب عن حزنها وسقمها بسبب زواجها من سيد العرب، وفتى الفتيان، وفارس الإسلام، وحصنه الحصين، وباب مدينة علم أبيها الذي كان بالنسبة لها صفحة بيضاء ليس فيها ما يخفى عليها، وليست البتول التي تجبر على الزواج بمن لا ترضاه وهي أم أبيها، وأقرب الخلق إلى نفسه الشريفة، ثم هل

يعقل أن تبكي تلك العابدة الزاهدة حبيبة المصطفى أمام خاتم الأنبياء بسبب فاقة أو متاع، ومازالت تصبِّح أنفاس الوحي وتماسيه.

ليس هذا فحسب فقد روي عن أبي هريرة على ما نقل ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٤٥٥ -٤٥٦ أنه قال: (لما خطب عليٌّ فاطمة دخل عليها رسول الله فقال لها: «أي بُنَيَّة! إن ابن عمك عليًّا قد خطبك فماذا تقولين؟»، فبكت ثم قالت: كأنَّك يا أبي إنَّما ادَّخرتني لفقير قريش؟ فقال: «والذي بعثني بالحقِّ ما تكلَّمت فيه حتَّى أذن الله لي فيه من سبع سماوات»، فقالت فاطمة: رضيت بما رضي الله ورسوله).

ولقد أرادوا بكلِّ وسيلة تعكير ذلك الصفاء وتلك المناسبة في ليلتها، فقد روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٥٧ عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا زوَّج فاطمة، دخل النساء عليها، فقلن: يا بنت رسول الله، خطبك فلان وفلان، فردَّهم عنك، وزوَّجك فقيرًا لا مال له، فلمَّا دخل عليها أبوها ﷺ رأى ذلك في وجهها، فسألها فذكرت له ذلك، فقال: «يا فاطمة، إن الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلمًا؛ وأكثرهم علمًا، وأعظمهم حلمًا؛ وما زوَّجتك إلاَّ بأمرٍ من السماء، أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة»)، وورد في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ٩٤ أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أتاني ملك فقال: يا محمد إنَّ الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك: إني قد زوَّجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملأ الأعلى فزوِّجها منه في الأرض» نعم لقد أراد الملأ إزعاجها، فليس من حجَّة يعاب بها المرتضى سوى فقره بزعمهنَّ، وقد رأى رسول الله ذلك في وجهها، ويغلب على الظنِّ أن ما أزعجها عليها السلام أنه

ليس من المناسب لعروس أن تتحدَّث عن صفات زوجها ومحاسنه في ليلة هديها، ويوم قال لها المصطفى ما قال صلوات الله وسلامه عليه، لم يقله على سبيل إعلامها، فهي على معرفة بكلّ ما قاله، ولا أشكُّ في أنها كانت على بيِّنة منه قبل حين بعيد، ولقد قال صلوات الله عليه ما قال ليصفع تلك القالة بكل عنف إن كانت قد حصلت فعلاً، وأظنها.

والحديث الشريف لا يستثني بعيدًا أو قريبًا من المسلمين، فالذي تجاوز والعشرين أقدم أمته إيمانًا برسالة النبي، وهو على الرغم من صغره مقارنة بغيره أكثر أمته علمًا، وفي الوقت ذاته أعظم المسلمين حلمًا، وقد لمست الأمة هذه الحقائق واعترف المنصفون بها، فأي رجل كان، ويا لنكدِ هذه الأمَّة يوم كان بين ظهرانيها إمامًا وخليفة، ولم تستفد منه ومن دستوره ونهجه أكبر فائدة ممكنة.

وأمر آخر يدفع كلَّ ذلك الغثَّ الذي نسجه هذا أو ذاك من علماء السلاطين ووعَّاظهم ورواتهم، لقد كانت البتول في أوج زهرة العمر يوم زُفَّتْ إلى المرتضى، فقد تزوجت ولما تبلغ الثانية عشرة من عمرها الشريف على الأغلب، ومن كانت في عمرها في تلك البيئة لا تتطلع إلاَّ إلى سمات الفتوَّة والبطولة والشباب والفروسيَّة في فارس أحلامها، فأي فتى كان الذي تهيَّأت المدينة لزفافه، لقد جاوز العشرين من عمره يتدفَّق حيوية وشبابًا، فارسًا لا يدانيه أحد في فروسيَّته وقيمها، ولاشكَّ أنها سمعت من أبيها ومن غيره بما فعله في صناديد قريش وفرسانها في معركة بدر، ولا شكَّ أنها رأته أو سمعت بحمله راية أبيها العقاب، وما كانت أحاديث القوم عن شجاعته ببعيدة عن سمعها وبصرها، وقد شاهدت بعضها سواء أكان ذلك في مكَّة أم

حينما رافقته أثناء هجرته، ولاشكّ أنها على بيِّنة من سلوكه وعلمه، وهي تعلم أنه كانت ساعد أبيها الأيمن وسيفه ودرعه، فأية فتاة تستطيع أن ترفض كلَّ تلك الصفات وتغلّب عليها الحطام الذي أشير إليه، فتبكي عليه، وكان لها لو أرادت أن تراجع نفسها في الارتباط به خلال قرابة سنة مرَّت ما بين عقد زواجها وزفافها عليها السلام.

لقد بكت كما يمكن أن تبكي أية بكر فقدت أمها، وما أحوجها إليها في يوم مثل ذلك اليوم، ولقد رأى مثل هذا عبد الرحمن الشرقاوي في رائعته علي إمام المتَّقين ١/ ٤٢، نعم لقد كانت البتول عليها السلام محاطة بكل اهتمام نساء المدينة من مهاجرات وأنصاريَّات ولابد أن تكون في مقدمتهن أم الإمام فاطمة بنت أسد، وعمته صفيَّة بنت عبد المطلب، و زوجة عمِّه حمزة أسد الله وأسد رسوله سلمى بنت عميس وغيرهنَّ من أمهات المؤمنين ومن نساء البيت الهاشمي، ولكنَّها سلام الله عليها تفارق عالمًا أحاطها بكلِّ حنان الأمومة وشفقة الأبوة وروحانيَّة النبوَّة، عالم محمد الذي استطاع أن يحتوي بعدله ورحمته وشفقته كلَّ ذلك الجدب الذي شقَّه في داجٍ من الظلام فأحاله إلى وارف، عالم مازال منذ ذلك التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض نعمة كبرى لو اهتدى الخلق به حقًّا، أو اقتدى صدقًا، حقَّ لها أن تبكي، بل هو المستحيل أن تُظْهِرَ فرحًا أو سرورًا في مثل ذلك اليوم.

لقد أراد الملأ في غير مناسبة إظهار ما يشيب تلك العلاقة بأية صورة من الصور، بروايات لفَّقوها، أو حرَّفوها، أو فسَّروها بحسب أهوائهم، وجاؤوا بها من هنا وهناك، وبذا تبدو العلاقة المقدسة فيها كثير مما يشيبها، ومن تلك الروايات حكاية خطبة ابنة أبي جهل التي سنطيل لوقوف عليها لتفنيدها.

حكاية خطبة ابنة أبي جهل

وهي من القصص التي تداولها بعض المؤرخين وأصحاب كتب الحديث وكثير من المحدثين ممن كتب عن الإمام أو عن الزهراء، كالبلاذري الذي روى في أنسابه ٣٢/٢ عن المسور بن مخرمة الذي قال بزعم الرواية: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يخطب على المنبر فقال: «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليًّا، ألا وإني لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة منّي يريبني ما رابها»)، وقال في المصدر السابق أيضًا من دون سند أو راوية: (وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بلغني أن عليًّا خطب العوراء بنت أبي جهل، وإني لا آذن في الجمع بين ابنة رسول الله وابنة عدو الله»)، وروى ابن حجر في المطالب ٦٨/٤ برقم ٣٩٨١ عن علي بن الحسين أن المسور حدَّثه (أن علي بن أبي طالب أراد أن يخطب بنت أبي جهل، فقال الناس: أترون رسول الله يجد من ذلك، فقال ناس: وما ذلك إنما هي امرأة من النساء، وقال ناس: ليجدنَّ من هذا، يتزوَّج ابنة عدو الله على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد! فما بال أقوام يزعمون أني لا أجد لفاطمة، وإنما فاطمة بضعة مني، إنه ليس لأحد أن يتزوج ابنة عدو الله على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم»، وعلّق على الرواية بقوله: (هذا مرسل، وأصل الحديث في الصحيح من حديث المسور أنه حدَّث به عليٌّ بن الحسين)،

وذكر الخبر عينه رواة ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٤٠ والمرأة فيه اسمها بدرة، والحديث عنده، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم خطب الناس فقال: « لا أحرم حلالاً ولا أحلُّ حرامًا، وإن فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها، وإني أخشى أن تفتن عن دينها، ولكن إن أحب ابن أبي طالب أن يطلقها ويتزوج بنت أبي جهل فإنه والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبدًا»، وقبل مناقشة صحَّة الحديث فإن سياقه يدلل على وضعه، إذ كيف يخشى رسول الله على سيدة نساء العالمين أن تفتن في دينها، فإذا كانت امرأة بهذه المكانة التي وضعها الله بها تنحرف وتفتن في دينها بسبب دخول امرأة ثانية عليها، فماذا ستفعل بقيَّة النساء، وأمر آخر في الحديث يدفع إلى الريبة فيه، وهو نبز ابنة أبي جهل، فهي وإن كانت ابنته، فلا أظن أن رسول الله يعيِّرها بأبيها وإن كان أبا جهل بعد أن أسلمت، بل ما موقف جميع الصحابة من قريش أمام هذا الموقف وزوجاتهم جميعًا بنات المشركين أو أخواتهم أو ما إلى ذلك من صلات الرحم أو النسب؟! وقد أشار غير باحث إلى بعض هذه الحقائق لتفنيد ذلك الجانب من تلك الرواية.

وخرَّج الحديث المذكور فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء ١٨٤ -١٨٧ من صحيحي البخاري ومسلم، ومن سنن الترمذي، ومسند أحمد، ومن سبعة طرق في كتب الصحاح المذكورة، وأنت تلاحظ أن ابن حجر كان ملتفتًا إلى أن هذا الحديث من المراسيل التي لا يمكن الأخذ بها، فليس ربيب الوحي الذي تأدَّب بأدب رسول الله يفكر في خطبة ابنة أبي جهل أشدَّ الناس عداوة وحقدًا وإيذاء لرسول الله، وليس

الإمام ذلك الرجل الذي يفكر بإيذاء المصطفى وابنته، وهو على بينة من مكانتها من رسول الله، بل مكانتها في ذاتها عليهم السلام.

ولخبر مسور هذا طريقان في تاريخ دمشق ٦٧/٢٨٣ -٢٨٤ أيضًا جاء في الأول: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن يُنْكِحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلاّ أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة منّي يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»)، وهو عين خبر البلاذري السابق الذكر مع زيادة لحقت به لا نعرف مصدرها وهي «إلاّ أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم» وجاء في الثاني: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنْكِحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، وإني لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلاّ أن يشاء ابن أبي طالب أن ينكح ابنتهم ويطلّق ابنتي، إنما ابنتي بضعة منّي يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها».

وذكر ابن عساكر رواية أخرى عن مسور وهي أنه (بعث إليه حسن بن حسن يخطب ابنة له، فقال: قل له فليلقني في العتمة. قال: فلقيه فحمد الله تعالى المسور، وأثنى عليه، وقال: أما بعد، أما والله ما من نسب ولا سبب ولا صهر أحبُّ إليَّ من نسبكم وصهركم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فاطمة مضغة مني، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي»، وعندك ابنتها، ولو زوجتك لقبضها ذلك، فانطلق عاذرًا له).

وذكر محمد صادق الصدر في كتابه حياة أمير المؤمنين ١٨٥ أن خبر مسور هذا تناوله العقاد في كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون، وبنت الشاطي في كتابها بنات النبي، واحتمل العقاد أن تكون هذه الخطبة (غضبة من غضبات علي على أنفة من أنفات الزهراء، أو لعلها نازعة من نزعات النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأباها، وإن أباها العرف في حالة المودة والصفاء)، وردَّ عليه محمد صادق بقوله: (وكان الجدير بالعقاد قبل أن يحمل الزهراء على الأنفة وقبل أن يحمل الإمام على الغضب أن يرجع إلى البطل الذي حاك هذه القصة في رواياتها المختلفة ليتضح له الواقع على حقيقته فإن أعيت به السبل رجع إلى هذه الأسباب أو غيرها كما شاء).

أما بنت الشَّاطئ فقد ذكر محمد صادق في كتابه السابق الذكر ١٨٥ - ١٨٦ أنها (أرسلت هذه الرواية إرسال المسلَّمات، وحررت في استعظام ذلك عدَّة صفحات، كما أنها عدَّدت مساوئ أبي جهل وأنه هو الذي رأى لقريش قبل الهجرة أن تختار كل قبيلة منها شابًا جلدًا نسيبًا، ثم يعطى سيفًا صارمًا فيعمدوا جميعًا إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فيتفرَّق دمه في القبائل جميعًا، ذكرت الكاتبة كل ذلك مستغربة إقدام الإمام على هذه الخطبة من ابنة عدو الله، وكان على الباحثة الفاضلة قبل أن تسيء الظن بالإمام أن تبحث عن الراوي، ولو رجعت إلى الإصابة والاستيعاب لفهمت بوضوح أن المسْور قد تسوَّر على مقام الإمام وعلمت أنها رواية مزعومة لم يعرفها المؤرخون ولم يروها غير ابن مخرمة).

وغريب أيضًا أن محمود شاكر في كتابه علي بن أبي طالب ٤١٤ -٤١٥ حين تحدَّث عن زواج المرتضى بالزهراء البتول لم يلفت نظره أي أمر من أمور

تلك العلاقة السامية التي كانت بعض قصصها من أحاديث التربية الإسلامية إلاّ حكاية خطبة بنت أبي جهل، فرواها بلا تعقيب أو تعليق، وكأنها من المسلّمات عنده، وأنت واقف في كتابه على غير موقفٍ من هذا الغثّ الذي روَّجته أقلام حزب الشيطان، وفعل فعلته أيضًا الدكتور علي محمد الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ١٠١/١ الذي حاول جاهدًا حشد مثل هذا، والاجتهاد بتوجيه بعض الروايات التي لا خلاف عليها وجهة تبتعد عن مدلولها، وأساء إلى شيعته بلا حياء من الإمام أو من رسوله أو من ابنته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فأطلقها إطلاقًا من دون مناقشة أو وقوف أو رويَّة.

وقد ناقش الرواية المنسوبة إلى مسور بن مخرمة محمد صادق الصدر بإسهاب في كتابه السابق الذكر ١٧٩ -١٨٦ وعزاها إلى انحرافه عن الإمام، وأن الرواية أساءت كل الإساءة إلى الوصي والنبي والزهراء البتول صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقال من بين ما قال: (إن هذا الكلام الذي زوره المسور لا يصدر عن رسول الله (ص) كما أن الإقدام على الخِطبة من الإمام أمر مستحيل لا يمكن تصوره والزهراء في قيد الحياة ... وإن الزهراء عاشت بعد أبيها ستة أشهر على أشهر الروايات، فيكون عمر بطل الروايات المغوار ثمان سنين وستة أشهر فمتى تزوج المسور ومتى ولدت له بنت وقد خطبها الإمام؟؟!!.

لا شك أن ابن مخرمة لم يتحدث عن هذه الخِطبة في حياة الإمام وإنما تحدث عنها بعد سنين وسنين في وقت قد ضاع الحساب على الناس، وما

عرف ابن مخرمة إنا سنقف له بالمرصاد -بعون الله -بعد ألف ومئات من السنين.

وقد تسوَّر ابن مخرمة على قدسي مقام الزهراء عليها السلام إذ قال ناسبًا إلى النبي إنه قال: « إن فاطمة مني، وأنا أتخوَّف أن تفتتن في دينها »، وهذا واضح بأنه ليس مما يتفوَّه به النبي الكريم وهو القائل: بأنها سيدة نساء العالمين، ومن كانت بهذه المنزلة فكيف يتخوف عليها أن تفتتن في دينها؟؟!!

ثم هناك شيء آخر يوضح لنا افتعال هذه الأقوال، فإن المسور يدَّعي أن الرسول كان يعلن هذه الأقوال على أعواد المنبر فلو صحَّت لنقلها غيره ممن حضر، مع العلم أن المسور قد انفرد بالنقل، ولم تنقل عن غيره ممن كان منحرفًا عن الإمام).

وفي هذا الصدد نقل الصدر رواية عن المسور أيضًا أنه قال: (إنه بعث إليه -أي الإمام بعث إلى ابن مخرمة - حسن بن حسن يخطب ابنته فقال له: فلتأتني في العتمة فلقيه، فحمد الله عز وجل، وأثنى عليه وقال: أما بعد فما من نسب وسبب ولا صهر أحب إلي من نسبكم وصهركم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وأن الأنساب يوم القيامة تنقطع إلاَّ نسبي وسببي وصهري»، وعندك ابنته، ولو زوجتك لقبضها ذلك، فانطلق عاذرًا له، أخرجه أحمد في المناقب.

وعلَّق على الرواية المذكورة بقوله: (ولم يكتف المسور بما نقل عن الإمام من رغبته بالزواج من هنا وهناك حتى جاء دور المسور نفسه فافترض أن

الإمام أراد من المسور ابنته، وأن ابن مخرمة وعظه وذكّره في الحديث المشهور « فاطمة بضعة مني » فرجع عن الخطبة عاذرًا، وهذا من رزايا الإسلام، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله).

واستخلص الصدر انحراف مسور وبعد روايته عن الواقع من ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر، والإصابة لابن حجر، وقد جمع ما ورد في الترجمتين ابن عساكر في كتابه تاريخ مدينة دمشق ٦٧/٢٨٢ -٣٠٢، قال الصدر:

(١ - المسور ابن أخت عبد الرحمن بن عوف، وانه لم يزل مع خاله هذا مقبلاً ومدبرًا في أمور الشورى، وعبد الرحمن موقفه من الإمام في الشورى معلوم وابن أخته على شاكلته.

٢ - قبض النبي (ص) والمسور ابن ثمان سنين، وإنه ولد بعد الهجرة بسنتين.

٣ - ويقول في الاستيعاب: وكان المسور لفضله ودينه وحسن رأيه تخشاه الخوارج وتعظمه وتنقل رأيه.

٤ - ويقول في الإصابة: وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف ليالي الشورى، وحفظ عنه أشياء، ثم كان مع ابن الزبير فلما كان الحصار الأول أصابه حجر من حجارة المنجنيق فمات.

٥ - يقول في الإصابة: وأخرج البغوي من طريق أم بكر بنت المسور عن أبيها يقول: مرَّ بي يهودي والنبي (ص) يتوضأ فرفع ثوبه فإذا خاتم النبوة في ظهره فقال لي اليهودي: ارفع رداءه عن ظهره، فذهبت أفعل فنضح في وجهي كفًا من ماء.

٦ - ويقول في الإصابة ومن طريق عثمان بن حكيم عن أبي أمامة بن المستهل عن المسور: أقبلت بحجر أحمله ثقيل وعليَّ إزار خفيف فانحلَّ فلم أستطع أن أضع الحجر حتى بلغت به موضعه فقال النبي (ص): ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة).

ومن الذين دفعوا هذه الفرية الشيخ محمد علي عزّ الدين في كتابه تحيَّة القاري لصحيح البخاري ١٥٢ -١٥٤ إذ ذكر ما رواه البخاري في صحيحه عن المسور، فقال: (هذا الحديث موضوع ومفترى به على عليٍّ عليه السلام بلا مرية، فإن رسول الله (ص) أجلّ من أن يشرِّع حكمًا ويأمر به ثم ينهى عنه ويغضب على فاعله، وإذا كانت بنت أبي جهل مسلمة، فنكاح الاثنين سائغ، بل مندوب إليه شرعًا، فكيف يمنع منه رسول الله (ص)؟ ولو رأينا رجلاً له ابنة قد زوَّجها لشخص ثم أراد صهره أن يتزوَّج وغضب لابنته، وحاول المنع نقول: إنه خرج عن الشريعة، وعصى أمر الله، فما الظنُّ برسول الله صاحب الشريعة؟ أتظنّ أنَّه شرَّعها لغيره؟ حاشا الله، ولكنَّ القوم لا يفقهون. وأما كونها بنت عدو الله؛ فلا يجتمع مع فاطمة بنت ولي الله ورسوله، فهذا مما لم يشترطه أحد من الفقهاء في نكاح الاثنين، ولا به كتاب ولا سُنَّة، كيف ورسول الله قد نكح بنت عدو الله على بنت ولي الله بزعم القوم؟! فإنه أعتق صفيَّة بنت حيي بن أخطب الذي قتله على اليهوديَّة، فهو عدوُّ الله، وتزوَّجها على عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق الذي هو ولي الله، وعلى حفصة بنت عمر بن الخطَّاب، بل كان لا ينبغي أن تجتمعا مع سودة بنت زمعة الذي قتل «أبوها» على الكفر، وكان هو وأبوه مساوقين لأبي جهل في عداوة النبيّ (ص)، بل كان يجب أن يمنع كل من جمع من أصحابه

وغيرهم بين بنت مسلم وبنت كافر بتقريب أن المسلم وليُّ الله والكافر عدوُّ الله، وهم لا يقولون به، ولكن مما يخفّف العتب عليهم أنهم لا يعلمون ما يقولون، فإن قلت لعلّها لخصوصيَّة كونها بنت رسول الله لا لأنه وليُّ الله. قلت: لم يذكرها أحدٌ في خصائص الرسالة مع حصرهم خصائصه (ص)، مثلاً: إنه لا يجوز نكاح نسائه من بعده، وغيرها مما ذكروه من خصائص، والحاصل أنَّ هذا الحديث لئن يجعل قدحًا برسول الله أقرب من أن يجعل قدحًا بعليّ، ولئن يورده الكفّار في كتبهم أحقّ من أن يودعه المسلمون في صحاحهم، وكفى في ذلك برهان على وضعه).

وخير دراسة وقفت عليها في نقد هذه الحكاية والتدليل على وضعها، هي دراسة السيِّد علي الحسيني الميلاني التي نشرها في كتابه الرسائل العشر بعنوان (رسالة في حديث خطبة علي بنت أبي جهل) فقد ذكر فيها روايات مخرجي الحديث وأسانيده، ورواته في المسانيد والمعاجم وهم عنده البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجة، وأبي داود، والحاكم، وابن أبي شيبة، وأحمد بن حنبل، والهيثمي، وابن حجر العسقلاني، والمتّقي، فذكر رواياتهم في كتبهم، وقد استغرقت الروايات المذكورة الصفحات ٧-١٦ من الرسالة، ثم عاد فذكر في الصحيفة ١٧ منها أسانيد الحديث، ووجد أنها تنتهي إلى المسور بن مخرمة، وعبد الله بن عباس، وعلي بن الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعروة بن الزبير، ومحمد بن علي، وسويد بن غفلة، وعامر الشعبي، وابن أبي مليكة، ورجل من أهل مكّة، ونظر فيها نظرة علميَّة غاية بالدقّة لتفنيدها بما لا يقبل الشكّ والريبة، فبدأ أولاً بالرواية المنسوبة إلى عبد الله بن عباس، فذكر أن في سنده عبيد الله بن

تمّام، وهو ضعيف عند الهيثمي، وقال: (ذكره ابن حجر، وذكر هذا الحديث من مناكيره. قال: ضعّفه الدارقطني، وأبو حاتم، وأبو زرعة وغيرهم، وقال أبو حاتم: ليس بالقويّ. روى أحاديث منكرة، وقال الساجي: كذّاب يحدّث بمناكير، وذكره ابن الجارود والعقيلين وأورد له عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس: ... الحديث) كما ذكر في الصحيفتين ١٧ -١٨ من رسالته.

وثنّى في الصحيفة ١٨ بالرواية المنسوبة إلى علي بن الحسين، فقال: (رواه ابن حجر العسقلاني، ثم قال: وأصل الحديث في الصحيح من حديث المسور أنه حدّث به علي بن الحسين) وقال: (وفي هامشه: قال البوصيري رواه الحارث بسند منقطع ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، وأصله في الصحيح من حديث المسور)، الذي ستأتي مناقشته فيه لاحقًا.

وثلّث في الصحيفة ١٨ أيضًا بالرواية المنسوبة إلى عبد الله بن الزبير، فذكر أن الترمذي، وأحمد، والحاكم، وأبا نعيم، رووه عن أبي أيُّوب السختياني عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير فذكر أن الترمذي احتمل أن يكون ابن أبي مليكة وعبد الله بن الزبير سمعاه من المسور، وقال: (إن كان قد سمعها من المسور فسنتكلّم على حديث المسور بالتفصيل، وإن كان هو الراوي للحديث بأن يكون قد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو طفل -لأنه ولد سنة إحدى من الهجرة، فحاله في البغض لعلي وأهل البيت بل النبي نفسه معلوم. ثم إن الراوي عنه ابن أبي مليكة مؤذنه كما ستعرف).

وتحدَّث في الصحيفة ١٩ عن رواية عروة بن الزبير، وقال: (أخرجه أبو داود بسنده عن الزهري عنه. ولم أجده عند غيره) قال: (وهو منكر؛ لأنه مرسل، لأن عروة بن الزبير ولد في خلافة عمر) وقال: (ولأنَّ عروة كان من المشهورين بالبغض والعداء لأمير المؤمنين عليه السلام كما ستعرف في خبر حول الزهري، وحتى أنه حضر يوم الجمل مع أصحابه على صغر سنِّه)، وقال: (ولأنَّ الراوي عنه هو الزهري وستعرفه).وتحدَّث في الصحيفة السابقة نفسها عن الرواية المنسوبة لمحمد بن الحنفيَّة، فقال: (رواه أحمد عن سفيان عيينة عن عمرو بن دينار عنه..وهذا لم أجده إلاَّ في الفضائل لأحمد، فلم يروه غيره، ولا هو في مسنده فيما أعلم)، وقال: (وقد ذكر محقق الفضائل في هامشه أنه مرسل، ومحمد بن الحنفيَّة لم يسنده)، وقال: (قلت: وذلك لأن عمرو بن دينار لم يسمع من محمد بن علي؛ لذا لم يذكروا محمدًا فيمن روى عنه عمرو،...قال ابن حجر: ومقتضى ذلك أن يكون مدلِّسًا)، وذكر أيضًا أن محمد بن علي عليه السلام لم تكن له صحبة، وقد تزوج الإمام بأمه بعد وفاة الزهراء بزمن.

ثم انتقل إلى الرواية المنسوبة إلى سويد بن غفلة، وقال: أخرج حديثه الحاكم عن أحمد بسنده عن الشعبي عنه، ولم أجده عند غيره، وقد صححه. وقال: (لكن قال الذهبي في تلخيصه: مرسل قوي، وذلك لأن سويدًا لم يدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه قدم المدينة حين نفضت الأيدي من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالعجب من الحاكم كيف صححه؟!)، ويستغرب الباحث أيضًا من سكوت الذهبي عنه بعد أن رواه عن أحمد بسنده عن الشعبي عن سويد بن غفلة، ومن ابن حجر العسقلاني

كيف وافقا الحاكم على صحة سنده مع تصريحهما بأنَّ سويدًا لم يلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم انتقل إلى الرواية المنسوبة إلى عامر الشعبي، وهي في كنز العمَّال والفضائل عن عبد الرزاق بن همام، وابن أبي شيبة، وقال: (ومن المعلوم أن الشعبي مات بعد المائة، والمشهور أن مولده كان لست سنين خلت من خلافة عمر، فالحديث بهذا مرسل، ولعله يرويه عن سويد بن غفلة ... وقد عرفت أنه مرسل كذلك)، ثم ذكر ما يقدح بالأحاديث التي تروى عنه ولاسيما ما يختص بأهل البيت، من مثل قوله: (إن فاطمة لما ماتت دفنها علي ليلاً وأخذ بضبعي أبي بكر فقدَّمه في الصلاة عليها)، ومن مثل قوله: (صلى أبو بكر الصديق على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبَّر عليها أربعًا)، فإن هذا كذب بلا ريب، حتى اضطرَّ ابن حجر إلى أن يقول: (فيه ضعف وانقطاع)، وأضاف إلى ذلك أنه روى عن جماعة كبيرة من الصحابة لم يلقهم كعلي عليه السلام، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأم سلمة وعائشة، وذكر أدلَّة أخر كلها تدلّل على استحالة الأخذ بروايته تلك.

أما حديث ابن أبي مليكة فهو مرسل يرويه إمَّا عن عبد الله بن الزبير، وإما عن المسوِّر، وإما عن كليهما، وكان من قبل قد تحدَّث عن رواية ابن الزبير، أما حديث المسور فذكر أنه سيتكلَّم عنه لاحقًا.

ثم انتقل إلى رواية تنسب إلى رجل من أهل مكَّة، وهو عند أحمد والحاكم رواه عنه أبو حنظلة، وأبو حنظلة غير معروف، والرجل المكّي لا

يعرفه أحد، والراوي عن أبي حنظلة يزيد بن هارون الذي قال عنه يحيى بن معين: (يدلّس من أصحاب الحديث، لأنه لا يميز ولا يبالي عمّن روى).

ثم انتقل إلى الرواية المنسوبة إلى المسور ففنّدها سندًا ومتنًا بما لا يقبل الشك في الصفحات ٢٣ -٤٤، وختم في الصحيفة ٤٥ بقوله: (وقد استعرضنا -بعون الله تعالى -جميع طرق هذا الحديث، ودقّقنا النظر في رجاله وأسانيده، وفي ألفاظه ومداليله فوجدناه حديثًا مختلقًا من قبل آل الزبير، فإن رواته عبد الله بن الزبير، وعروة بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وكان من أعوان عبد الله وأنصاره والمقتولين معه في الكعبة.. وعبد الله بن أبي مليكة، وهو قاضي الزبير ومؤذنه، والزهري، وهو الذي كان يجلس مع عروة بن الزبير وينالان من أمير المؤمنين عليه السلام، وشعيب بن راشد وهو راوية الزهري، وأبو يمان، وهو راوية شعيب...هؤلاء رؤوس الوضّاعين لهذه الأكذوبة، وكل هؤلاء على مذهب إمامهم عبد الله بن الزبير). إلا أنه قال في الصحيفة ٤٤: (لكن أغلب الظن أن القوم وضعوا قصّة الخطبة، وألصقوها بالمسور وروايته...لغرض في نفوسهم، ومرضٍ في قلوبهم)، وأراد برواية الرواية التي وردت في الصحيحين عن المسور مجرّدة عن حكاية الخطبة، إذ قال ابن حجر: (وفي الصحيحين عن مسور بن مخرمة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « فاطمة بضعة منّي، يؤذيني ما آذاها، ويريبني ما رابها»، ونقل السيد الميلاني عن ابن حجر (روايته عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن السور بن مخرمة).

ورأيت في الروايات المنسوبة إلى المسور أو المروية عن غيره أمرًا آخر لم يلتفت إليه العقاد ولا بنت الشاطئ، ولم يحسبه السيد الصدر فيما حسب،

ولعله أقرب الأمور إلى الصواب، فقد تبين لنا وسيتبين أيضًا موقف الفئة الباغية من الإمام، وستلاحظ في فصل عقدناه في الجزء الثاني من كتابنا (وما أدراك ما علي) كيف أنه كان من هموم تلك الفئة الإساءة إلى علاقة الإمام بأخيه صلوات الله وسلامه عليهما من ناحية، والإساءة إلى علاقة الإمام بسيدة نساء العالمين سلام الله عليها من ناحية أخرى، إذ ليس من السهل عقلاً أن نصدّق إقدام المرتضى على هذه الخطبة، وإن ذكرها آلاف الرواة ونسبوها إلى جميع من عاصر المرتضى عليه السلام، وإذا كنّا نأخذ بها فعلينا أن نأخذ بمثل هذا اللغو الذي نشره أعداء المرتضى على ألسنة كبار الصحابة والتابعين، ولقد بذلت تلك الفئة ما بذلت لتحقيق تلك الرغبة الدَّنسة، من مثل ما حدَّث به حريز بن عثمان من أن النبيَّ (لما حضرته الوفاة أوصى أن تقطع يد علي بن أبي طالب)، ومن مثل قول سمرة بن جندب أن قوله تعالى: ﴿ من النَّاسِ من يُعْجِبُكَ قولُهُ في الحياة الدُّنيا ويشهِدُ اللهَ على ما في قلبِهِ وهو ألدُّ الخِصام ❖ وإذا تَوَلَّى سعى في الأرضِ ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكُ الحرثَ والنَّسلَ والله لا يُحِبُّ الفسَادَ﴾ نزل في علي بن أبي طالب، وأن قوله تعالى: ﴿ ومن النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتِغاءَ مرضاتِ الله ﴾ نزل في ابن ملجم بعد أن قبض سمرة من معاوية أربعمائة ألف على ما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/ ٢٨٩ -٢٩٠، بل يصل الحال بالمغيرة بن شعبة أن يقول في مجلس معاوية كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/ ٢٨٨: (إن عليًّا لم يُنْكِحه رسول الله ابنته حبًّا؛ ولكنَّه أراد أن يكافئ بذلك إحسان أبي طالب).

وسنتقارب إن أعدنا النظر في الرواية التي نقلها السيد الصدر عن ذخائر العقبى ص ٣٧، وذكر في المتن (أخرجه أحمد في المناقب)، ورأى فيها أن

المسور لم يكتف بما رواه وإنما افترض أن الإمام أراد من المسور ابنته، وواقع الحال أن السيد الصَّدر قد وهم فيما ذهب إليه، إذ إن الذي خطب ابنة المسور هو الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام، وليس الإمام، ولم يرد الحديث المذكور في ذخائر العقبى فحسب، وإنما رواه أحمد من طريقين أيضًا، وقد ذكرناه لك من غير مصدر.

وتوثيقًا لما سبق أذكر لك ما رواه الحاكم في مستدركه، وهو يدلل بما لا يقبل الشكَّ أن خطبة ابنة مسور لا علاقة لها بالإمام عليه السلام: روى الحاكم بسنده: (حدَّثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبيد الله بن أبي رافع، عن المسور أنه بعث إليه الحسن بن الحسن يخطب ابنته، فقال له: قل له فليلقاني في العتمة، قال: فلقيه، فحمد الله المسور وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، وأيم الله ما من نسب ولا سبب ولا صهر أحب إلي من نسبكم وصهركم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فاطمة بضعة منِّي يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأسباب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري، وعندك ابنتها، ولو زوجتك لقبضها ذلك، فانطلق عاذرًا له).

والمسور أحد رواة الحديث الشريف « فاطمة مضغة مني، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب يوم القيام تنقطع غير نسبي وصهري »، وهو بروايته التي أخرجها البخاري في باب مناقب فاطمة عليها السلام: «فاطمة بضعةٌ منِّي، فمن أغضبها أغضبني»، وبروايته التي أخرجها مسلم في فضائل الصحابة «إنما فاطمة بضعة منِّي يوذيني ما آذاها». وكان الحسن بن الحسن قد تزوج من حفيدة الزهراء عليها السلام، فاطمة بنت

الحسين عليه السلام، وقد أنجبت منه عبد الله بن الحسن والد محمَّد ذي النفس الزكيَّة، كما ذكر أبو الفرج في مقاتله ١٦٦، فلم يشأ المسور أن يسيء إلى الزهراء بإدخال ابنته على حفيدتها، وقد رأت الفئة الباغية في الرواية المذكورة مناسبة للإساءة إلى النبي وابنته وإلى الإمام، بإظهاره بذلك المظهر الذي لا يتناسب بأية وسيلة من الوسائل مع خلق الإمام ربيب الوحي فنسجت ما نسجت على لسان مسور، وهو براء منها، إلا أنها استفادت من مناسبة خطبة الحسن المثنى من ابنته، ولاسيما أن حفيدة الزهراء حملت اسمها عينه، ولا أدل على سخف المحرِّف والتحريف أن جميع من ترجم لمسور ذكر أنه كان له من العمر ثماني سنوات يوم مات الرسول الكريم، ولك أن تنظر ترجمته في تاريخ دمشق ٦٧/٢٨٢ -٣٠٢، أما ما ذهب إليه السيد الصدر من انحراف مسور عن الإمام فإني أستبعد ذلك على الرغم من صعوبة العثور بين الصحابة على قرشي غير منحرف عن الإمام عليه السلام، ولكنَّ ما اتَّكأ عليه السيد الصَّدر لإثبات انحرافه لا تقوم عليه حجَّة، فإقباله وإدباره مع خاله في أمور الشورى ليس دليلاً قاطعًا على الانحراف، فأمر عبد الرحمن بن عوف في تلك الساعات الحرجة يحتاج إلى من يساعده فيه، للذهاب إلى هذا أو ذاك، ولعلَّه وجد في ابن أخته ذلك المساعد الذي يستعين به، وقد لا يكون ميَّالاً إلى ما مال إليه خاله، بل لعلَّ العكس هو الصواب لما يستفاد من رواية ذكرها الطبري في تاريخه ٣/٦٠٩ من طبعة الأعلمي صرَّح فيها المسور أن ميله كان مع عليٍّ، وليس مع عثمان، وأخرى ذكرها ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٤/١٢٠١ فقد روى بسنده عن ابن الكلبي الذي قال: (أرسل عثمان إلى علي رضي الله عنهما يقرئه السلام ويقول: إن فلانًا - يعني طلحة - قد قتلني

بالعطش، والقتل بالسلاح أجمل من القتل بالعطش، فخرج علي رضي الله عنه يتوكأ على يد المسور بن مخرمة حتى دخل على ذلك الرجل ... فلمَّا رآه تنحَّى عن صدر الفراش ورحَّب به، فقال علي رضي الله عنه: إن عثمان أرسل إليَّ أنكم قتلتموه بالعطش، وأن ذلك ليس يحسن، وأنا أُحِبُّ أن تدخل عليه الماء. فقال: لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ويشرب، فقال علي: رضي الله عنه: ما كنت أرى أني أكلِّم أحدًا من قريش في شيء فلا يفعل! فقال: والله لا أفعل، وما أنت من ذلك في شيء يا علي، فقام رضي الله عنه غضبان وقال: لتعلمنَّ بعد قليل أكون من ذلك في شيء أم لا.. فلمَّا انتهى إلى منزله التفت إلى المسور فقال: أما والله ليصلينَّ حرَّها، وليكوننَّ بردها وحرَّها لغيره، ولتتركنَّ يداه منها صفرًا. ويبعث ابنه إلى عثمان براوية ماء)، وأستبعد أن يكون قد انحرف عن عثمان من بعد كما انحرف عنه عبد الرحمن بن عوف من بعد، ولعلَّ ما يأخذ برواية الطبري التي سبقت الإشارة إليها أنَّه لو كان عثمانيًّا منحرفًا لرأيناه مع الجماعة التي لم تبايع الإمام، أو الأخرى التي التحقت بمعاوية، أو الثالثة التي التحقت بأصحاب الجمل.

وذكر ابن قتيبة رواية في الإمامة والسياسة ١/ ٨٩ تدلل إن صحت بما لا يقبل الشك أن رواية الخطبة المزعومة لا يمكن أن تنسب له، ذكر ابن قتيبة أن معاوية أرسل رسالة إلى وجوه أهل مكة والمدينة يتهم فيها أمير المؤمنين بقتل عثمان، وأنه لا يطلب خلافة، وإنما يطلب بثأره من قتلته، وفي ذات الوقت يطالب بخلع علي، وجعل الخلافة شورى بين المسلمين، قال: (.. والدليل على ذلك أن قتلته عنده، وإنما نطلب بدمه حتى يدفع إلينا قتلته، فنقتلهم بكتاب الله تعالى، فإن دفعهم إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين،

على ما جعلها عمر بن الخطاب، فأما الخلافة فلا نطلبها، فأعينونا يرحمكم الله، وانهضوا من ناحيتكم)، قال ابن قتيبة: (وذكروا أنه لما قرئ عليهم كتابه اجتمع رأيهم على أن يسندوا أمرهم إلى المسور بن مخرمة، فجاوب عنهم، فكتب إليه: أما بعد، فإنك أخطأت خطأ عظيمًا، وأخطأت مواضع النصرة، وتناولتها من مكان بعيد، وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب، فكفَّ عنَّا، فليس لك قبلنا ولي ولا نصير).

ووردت رواية في أنساب البلاذري ٣٣/٢ أيضًا تدللُ على أنه كانت له منزلة خاصة من الحسين عليه السلام، فقد أصرَّ الحسين على دفن أخيه الحسن الزكي بجوار جدِّه صلوات الله وسلامه عليهما، بعد أن منعه مروان من الدفن، ولم يتراجع الحسين عن قراره إلاَّ بعد تدخل عبد الله بن جعفر والمسوِّر بن مخرمة، قال البلاذري في أنسابه ٣٣/٢ نقلاً عن الواقدي: (وأبى الحسين إلاَّ دفنه مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى كلّمه عبد الله بن جعفر، والمسوِّر بن مخرمة الزهري فدفنه بالبقيع).

ونقف على موقف آخر لمسور هذا وقفه إلى جانب الحسين عليه السلام يوم ظلمه الوليد بن عتبة وكان أمير المدينة لعمِّه معاوية، فهدَّد الحسين الوليد بأنه ليقومنّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويدعونَّ بحلف الفضول، فبلغ ذلك المسور، فقال: أحلف بالله لو دعا به لأجبته حتى يُنْصفَ من حقّه أو أموت.

ولا أشكُّ في أنه لم يكن لوحده في الإقبال والإدبار مع عبد الرحمن بن عوف، وإنما غالبيَّة أهل المدينة كانت تلك حالهم في تلك الساعات العصيبة من تاريخ الإسلام.

وإذا كان المسور منحرفًا عثماني الهوى، وهو ما لم أقف على ما يؤيده، فلعلّه أصبح من بعد علوي الهوى، فقد روى مسلم في كتاب فضائل الصحابة عن علي بن الحسين عليه السلام أنه بعد عودته إلى المدينة من تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب فيها غالبيَّة أهل بيت النبوَّة (لقيه المسور بن مخرمة فقال له: هل لك إليَّ من حاجةٍ تأمرني بها؟ قال: وقال له: هل أنت مُعْطِيَّ سيفَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فإنّي أخافُ أن يَغْلِبَكَ القوم عليه؟ وإيْمُ الله لئن أعْطَيْتَنِيهِ لا يُخْلَصُ إليه أبدًا حتَّى تَبْلُغَ نفسي)، ولا أستطيع الأخذ بدفع السيِّد الميلاني لهذه الرواية، لأن المسور لم يخرج مع الحسين عليه السلام، فليس المسور لوحده الذي لم يخرج معه عليه السلام في ثورته.

وقد ترك المسور المدينة إلى مكّة، ولا توجد إشارة إلى بيعته يزيد بن معاوية، كما لم أقف على ما يشير إلى بيعته عبد الله بن الزبير، ولعلّه ترك المدينة كي يتخلّص من إمكانية إجباره فيها على بيعته، أو أنه تركها بعد بيعته، وذكر أنَّ والي المدينة جلده خمسين جلدة لاتهامه يزيد بشرب الخمر والفجور، أما ما ذكره السيد الصدر من أن الخوارج كانوا يقصدونه، فلا يدفعنا إلى توثيق نسبة الرواية الباطلة إليه، فإن الخوارج كانوا يقصدون ابن عباس رضوان الله عليه أيضًا، ولعلَّ مما يوثّق ما ذكرته أنَّ أحد أحفاد ابن مخرمة، وهو عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المِسْور، كان من كبار صحابة محمد ذي النفس الزكيَّة كما ذكر ابن الأثير في كامله ٥/٥٥٢، واستعمله على ديوان العطاء كما ذكر الطبري في تاريخه ٧/٥٥٩، ولا شكَّ أن هذه العلاقة التي لم تنقطع تدفع تهمة لصق تلك الرواية به.

ورجَّح السيِّد الميلاني - كما ذكرنا - (أن القوم وضعوا القصَّة وألصقوها بالمسور)، ولكنَّه قال في الصحيفة ٤٥ : (والمسور بن مخرمة، وكان من أعوان عبد الله وأنصاره والمقتولين معه في الكعبة، وكان من الخوارج، وكان... كذا)، ولكنَّه لم يقدِّم دليلاً واحدًا يؤيد أنه من أعوان عبد الله بن الزبير وأنصاره، كما أنَّ هذه الصحبة من الصعب أن تثبت أنها كانت قبل استشهاد الحسين عليه السلام بدليل الروايات التي سبق ذكرها، أما قتله في الكعبة فليس فيه ما يدلّ على أنه من الأنصار أو الأعوان، فكثير من أهل المدينة فارقها إلى مكّة، وخاصَّة بعد استشهاد أبي عبد الله الحسين، بل إن بعض الناقمين من الحكم الأموي من شيعة أمير المؤمنين رأيناهم في صفِّ حزب ابن الزبير، واصطفافهم معه لا يعني بالضرورة تنكُّرهم لولائهم لأمير المؤمنين عليه السلام، فالأحنف بن قيس، وهو من كبار صحابة الإمام علي عليه السلام رأيناه يصحب مصعب بن الزبير من البصرة إلى الكوفة، وقد حضر جنازته مصعب بدون رداء في الكوفة، ووقف على قبره ورثاه كما ذكرت ذلك في كتابي الذي لم ينشر بعد "الأحنف بن قيس أعظم المعاقين في الإسلام"، ورأينا أحد أبناء مالك الأشتر قائدًا في جيش المختار، ثم من بعد أحد قوَّاد مصعب بن الزبير، بل إن سرور عبد الله بن الزبير كان كبيرًا لخروج أبي عبد الله إلى العراق، ليقينه أنه بمصرعه سلام الله عليه لا يخلو له الجو فحسب، وإنما سينحاز جمع غير قليل من النَّاقمين على الحكم الأموي إلى صفِّه، لا حبًّا به وإنما كراهية للحكم الأموي ورغبة في التخلُّص منه. كما أنَّ أحدًا ممن اتَّهم المسور لم يقدِّم دليلاً واحدًا على أنه من الخوارج، وقد ذكرنا سابقًا أن مجيء الخوارج إليه أو إلى غيره ليس دليلاً على أنه منهم.

وهكذا يتبيَّن لك أن خطبة المرتضى لابنة أبي جهل التي هلَّل لها وزمَّر أعداؤه عليه السلام من بعد لا يمكن أن تثبت من خلال الرواية المنسوبة لمسور بن مخرمة لاستحالة صدورها عنه، كما لم تثبت عن غيره.

وليس هذا الخبر لوحده الذي تداولته كتب أصحاب الحديث، وإنما هناك آخر مفاده أن المرتضى سلام الله عليه أراد أن يخطب أسماء بنت عميس فقد روى ابن حجر في المطالب ٦٧/٤ برقم ٣٩٧٩ أيضًا أن (أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أسماء متزوجة عليًّا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: « ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله »)، ولا أشكُّ في أن أسماء لم تقل ما قيل على لسانها، ولا أظن أن الزهراء مهما بلغ من صفائها وطهرها تقبل أن تكون أسماء من أقرب النساء إليها، وقد فكَّر زوجها بها بالأمس، بل رأيناها عليها السلام في سويعاتها الأخيرة ليس في جانبها من نساء المدينة سوى أسماء، التي كانت آنذاك في عصمة أبي بكر، فكيف تكون بهذا القرب منها، وهي تعلم أن زوجها المرتضى قد فكر بها من قبل، ولا أدلّ على ذلك من رواية ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية ٤٠/٥ (ولَّما حضرتها الوفاة أوصت إلى أسماء بنت عميس - امرأة الصديق - أن تغسلها، فغسلتها هي وعلي بن أبي طالب وسلمى أم رافع)، ولا أشك في أن تلك الفئة وجدت من زواج الإمام عليه السلام من بعد بأسماء مناسبة للإساءة إلى بيته، وما تزوجها عليه السلام فيما أحسب إلاَّ ليحفظ أبناء أخيه جعفر رضوان الله عليه، فقد كانت فجيعته باستشهاده لا تقلُّ عن فجيعة رسول الله به، فهو أقرب أخوته إليه، بل تذهب بعض الروايات التي ذكرناها في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى أن إسلام

جعفر كان بسبب تأثره بحديث أخيه عليٍّ عليه السلام معه، ومازال من عادة بعض القبائل العربية إلى الآن أنه إذا مات الأخ وترك أطفالاً قُصَّرًا تزوج أخوه بزوجته، لا إعجابًا بجمالها أو حرصًا على مالها، وإنما كي يحفظ أخاه وأبناء أخيه من قسوة اليتم، وهكذا فعل الإمام عليه السلام الذي حرص على تزويج ابن أخيه عبد الله بن جعفر من زينب عقيلة بني هاشم، بل رأينا عبد الله بن جعفر إلى جانبه حتى شيَّعه إلى مثواه الأخير.

ووردت أحاديث أخر كلها تحاول الإساءة بطريقة أو بأخرى لأهل بيت رسول الله وذريته الطاهرة، فقد ذكرنا في معرض الأوسمة التي وشَّح بها النبي صلوات الله عليه صدر أخيه وسام (أبي تراب)، فدُسَّ سمٌّ في إحدى رواياته يشيب علاقته عليه السلام بالزهراء، روى مسلم بسنده في صحيحه برقم ٢٤٠٩: (جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج، فلم يُقِلْ عندي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان: انظر أين هو، فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شِقِّهِ، فأصابه ترابٌ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه ويقول: « قم أبا التراب! قم أبا التراب»). وللخبر رواية أكثر غرابة ذكرها ابن هشام في سيرته ٢/٢٥٤ عن ابن إسحاق إذ قال: (وقد حدَّثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما سمَّى عليًّا « أبا تراب» أنه إذا عتب على فاطمة رضي الله عنها في شيء لم يكلمها، ولم يقل لها شيئًا تكرهه، إلاَّ أنه كان يأخذ ترابًا فيضعه على رأسه، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عليه

التراب عرف أنه عاتب على فاطمة فيقول « مالك يا أبا تراب» فالله أعلم أي ذلك كان)، وعلى الرغم من أن متنها لوحده يدعو إلى الريبة كما ارتاب بالرواية ابن إسحاق ولا أدري ماذا يمكن أن يقال في مثل هذه الرواية التي صوَّرت الإمام بتلك الصُّورة التي لا يرضاها منطق ولا عقل، كما لا أدري ماذا سيفعل الله بمن لفّقها. وقد ذكر قريبًا من كل هذا البلاذري في أنسابه ٢/٣٤٥ -٣٤٦.

وللخبر رواية أخرى ذكرها ابن عبد البر في استيعابه ٣/١١١٨ عن الطبري عن سهل بن سعد، ليس فيها أي ذكر لمغاضبة قال: (دخل علي على فاطمة، ثم خرج من عندها فاضطجع في صحن المسجد، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى فاطمة رضي الله عنها، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: هو ذاك مضطجع في المسجد، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فوجده قد سقط الرداء عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: « اجلس أبا تراب »)، والخبر بصورته هذه يختلف تمام الاختلاف عن الروايتين السابقتين، فليس فيه مغاضبة، وليس فيه ما يسئ إلى سلوك الإمام كما صورته الرواية السابقة الذكر يضع الترب على رأسه، ولا يستغرب أن يأخذه النوم في مسجد رسول الله، فما أكثر قيامه بين يدي خالقه فيه؛ بل إن واحدة من اسطواناته اقترن اسمه بها كما ذكر غير واحد ممن تحدَّث عن اسطوانات المسجد النبوي الشريف، على أنا رجحنا أن وسام أبي تراب اتشح به عليه السلام في غزوة العشيرة التي سبق ذكرها، وكان في حينها رفقة عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وفرق في رواية تأتي عن بعض أهل العلم، وأخرى تأتي عن عمار بن ياسر رضوان الله عليه.

ولو كان غير أهل بيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم لكان في مثل ما رووا من أحاديث وجهة نظر، أما بيت فاطمة تفوح منه تلك الحكايات فليس من العقل والمنطق أن نقبلها، لأنه البيت الذي مازال ستَّة الإسلام لبيوت المسلمين وزيجاتهم على مر الحقب والأزمان، البيت الذي رعاه جبريل بإرادة الله سبحانه وتعالى كي يكون قدوة في التربية الصالحة والخلق الربَّاني القويم، بيت فيه درع الإسلام وحصنه وباب علمه وقضائه أبو مساكينه، وفيه أيضًا سيدة نساء العالمين، وسيدا شباب أهل الجنَّة، البيت الذي لم يكرِّم الله بيتًا في الإسلام كما كرَّمه في كتابه المحكم.

نعم لأصحاب الحديث والمؤرخين والرواة قول أي شيء يتعلق بالعبادة والألفة والمحبة والرفق والتعاون والزهد والإيثار نأخذ به من دون مراجعة أو مناقشة، لأن فيه أحب خلق الله إلى الله ورسوله، وليس المصطفى من يحب بيتًا كلَّ ذلك الحب ولا يكون قدوة للناس، ومنارة للهدي والصَّلاح، أما حبُّه فقد أكَّدته عشرات الأحاديث نذكر منها ما رواه الترمذي في مناقب فاطمة وفضلها، والذهبي في عهده ٦٣٣ عن ابن بريدة عن أبيه قال: (كان أحبُّ النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة، ومن الرجال علي)، فهل يعقل أن تصدر من عماده رغبات من مثل خطبة بنت أبي جهل، ومن مثل خطبة أسماء بنت عميس، ومن مثل مغاضبة الزهراء البتول لأبي السبطين عليهما السلام!!؟؟.

بيت الأحزان

لم يدم ذلك الدفء طويلاً إذ سرعان ما هجمت الأحزان والهموم على بيت النبوَّة بعنف لا يستطيع وصفه أحد، فبالأمس كان الركب النبوي في بيت الله الحرام، ورأى بأمِّ عينه ازدحام آلاف مؤلَّفة من كلِّ فجٍّ على سيِّد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ينظرون إليه، ويستمعون إلى كلماته الخالدات، ويسيرون على هديه في تطبيق ما فرضه الله من سنن الحج، ويتدافعون أشدّ التدافع عند وضوئه لعلَّ أحدهم يفوز بقطرة ماء تسقط من بين يديه الشريفتين، ولا أظنُّ أنَّ شعرة من رأسه سقطت على الأرض حينما حلق شعر رأسه، وآلاف مؤلَّفة تسير بين يديه في مهرجان عظيم احتفت به ملائكة السماء، فهذه المرَّة الأولى التي يحجُّ فيها النبيُّ الكريم بعد هجرته، ولك أن تتخيَّل سعادة من كان في ركبه من المسلمين بحجتهم معه، وأزعم أنَّهم كانوا بانتظار سماع كلماته على أحرٍّ من الجمر، وما أن وقف فيهم خطيبًا حتى عمَّ الوجوم والصمت، فهذه خطبة وداع، ليس فيها من أمل بلقاء آخر، يبلِّغهم فيها بلاغه الأخير، بعد أن أتمَّ الدور الذي أنيط به، ولم يبق إلاَّ الرحيل بعد لبلاغ، ولا شكَّ أنَّ ذلك تركهم في وجوم ينبئ عن يوم حزن عظيم واقع لا محالة عما قريب، ولم تطل إقامته في البيت الحرام إذ سرعان ما انصرف في طريقه إلى المدينة، ولكنه توقف عند غدير خمٍّ، وفيه اجتمع الناس من حوله

للاستماع إلى النبأ العظيم، ووجدوا أنفسهم هذه المرَّة يستمعون إلى آخر بلاغات السماء، وهي بلاغات تنبئ بأنه راحلٌ عما قريب، ولكن الله لم يتركهم بدون حبل يتمسكون به فقد ترك بينهم كتابه العزيز وعترته الطاهرة أهل بيته، ويتمسكهم به لن تعرف الضلالة طريقًا إليهم، ولم يكتف بذلك صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أخبرهم بوليهم من بعده، هنا بدأ الخوف والقلق يغزو كيان الزهراء وكيان زوجها صلوات الله وسلامه عليهما، فالوحي بلّغ آخر بلاغ، وهذا يعني أنَّ المبلّغ سيرحل عمَّا قريب.

وبدأت الأحزان الحقيقيَّة تعرف طريقها إلى بيت النبوَّة، فبعد وصول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى مدينته بشهرين ونصف بدأ يشعر بوعكة فصَّلنا الحديث عنها في مبحث ازدحام الملائكة على باب بيت النبيِّ في كتابنا السابق الذكر، هنا فارقت الابتسامة وجه الزهراء بعد أن أحسَّت بمعنى مرض أبيها صلوات الله وسلامه عليهما هذه المرَّة، وكان ذهولها وحزنها يصعب على الوصف، ولاشكَّ أنها لازمته أيام مرضه كما لازمه زوجها، ولا شكَّ أن حزنه ودهشته لا يقلاَّن عن حزنها ودهشتها، وكانت تندب وتقول عليها السلام: (واكربي لكربك يا أبتي) كما ذكر ابن الأثير في كامله ٣٢٣/٢، وقد (سارَّها يومًا بشيء فبكت، ثمَّ عاد فسارَّها فضحكت، قالت عائشة: فسألتها عن ذلك فقالت: أخبرني رسول الله أني أول أهله لحاقًا به فضحكت) كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٤٧/٢، وللخبر فيه رواية أخرى في ٢٤٧/٢ -٢٤٨ عن السيدة عائشة أيضًا، وهو في سنن الترمذي ٣٥٩/٥ قالت: (كنت جالسة عند رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال: « مرحبًا

بابنتي» فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمَّ أسرَّ إليها شيئًا فبكت، ثمَّ أسرَّ إليها فضحكت. قالت: قلت: ما رأيت ضحكًا أقرب من بكاء! استخصَّك رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بحديثه ثم تبكين؟ قلت: أي شيء أسرَّ إليك رسول الله صلَّى الله عليه وسلم؟ قالت: ما كنت لأفشي سرَّه، فلمَّا قبض سألتها فقالت: قال: «إن جبريل كان يأتيني كلَّ عام فيعارضني بالقرآن مرَّة، وإنه أتاني العام فعارضني مرتين، ولا أظن إلا أجلي قد حضر، ونعم السلف أنا لك!» قالت: وقال: «أنت أول أهل بيتي لحاقًا بي»، قالت: فبكيت، ثم قال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين؟» قالت: فضحكت).

وبلغ من حبِّها لأبيها وولها عليه أنها كانت تطوف على نسائه كي يتركن حقَّهن من الطواف عليهن بسبب مرضه، روى البلاذري في أنسابه ٢/٢٥٢ عن الواقدي: (أن فاطمة كانت تطوف حين مرض النبي صلى الله عليه وسلَّم على أزواجه فتقول: إنه يشقُّ على النبي أن يطوف عليكنَّ، فقلن: هو في حِلٍّ، فكان يكون في بيت عائشة).

وذكر البلاذري في أنسابه أيضًا بسنده عن أنس بن مالك: (أن النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم لمَّا ثقل ضمَّته فاطمةُ إلى صدرها وقالت: واكرباه لكربك يا أبتاه، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»).

وركبها حزن شديد منذ رحيله فلم تُرَ ضاحكة حتى رحلت إلى جواره صلوات الله عليهما كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/٢٤٨، بل كانت تذوب من حزنها عليه، وشوقها إليه كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٤٠،

وزاد من حزنها وغضبها وكربها اجتماع السقيفة وما حدث فيه، فقد اجتمعوا ذلك الاجتماع الرهيب والرسول في ساعة نزعه لم يغسَّل بعد ولم يكفَّن، ورأت فيه تنكُّرًا لكلِّ تضحيات أبيها، بل عزلاً تامًّا وإبعادًا لكلِّ أهل بيته وأقرب صحابته، وكأنَّ المسجَّى لا يعنيهم، وكأنَّ أحزان أهل بيته لا تشغلهم في شيء، بل كأن المسجَّى وأهل بيته في واد، والقوم في وادٍ آخر.

ولا أشكُّ في أنَّ ما جرى كان صدمة عنيفة لأهل البيت زلزلت كيانه وهدَّته، إذ كيف يصدر ما صدر في كلِّ المقاييس الإنسانيَّة أو السياسية، ومنذ يوم الله ذاك انشطرت الأمَّة شطرين، وصدق عمر بن الخطاب بقوله: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرَّها، نعم كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها في ذلك اليوم بحكمة عليٍّ وطول أناته وصبره، فكيف يتم تقرير أمر الخلافة بتلك الصورة من غير أن يكون لعليّ وأهل بيت النبوَّة سلام الله عليهم رأي فيه على أضعف الوجوه، بل كيف يكون ذلك الاجتماع شرعيًّا بدون حضور عليٍّ وصفوة الصفوة من المهاجرين!!.

وكان يومًا تبعته أيَّام مازالت من أقوى أسباب اختلاف المسلمين وانقسامهم، لم تستطع كل الأحداث على الرغم من القرون التي مرَّت عليه أن تغيِّبه، إذ تعرَّض أهل بيت النبوَّة فيها إلى ما تعرَّض من استباحة كادت تؤدي إلى اشتعال النار فيه، وفجعت الزهراء بإسقاط جنينها، وكادت تموت بسبب الضغط الذي تعرَّضت له خلف الباب الذي احتمت به حتى لا يهتك حجابها، فكان غضبها لا حدود له، وشارك ما تعرَّضت له إلى الإسراع في رحيلها وهي في زهرة العمر، وقصص وحكايات بسبب امتناع أبي السبطين من مبايعة أبي بكر، جاهد التاريخ في إخفائها، وأسهب المؤرخون في

شرحها ما بين عامد على تشويهها، ومنصف في روايتها، ومتعد عن أحداثها ومقترب منها.

وزاد في ذلك الشرخ من بعد موقف الخليفة أبي بكر الغريب من ميراثها بفدك، وهو -حقًا -من المواقف التي زادت من الشرخ والانقسام، وأججت ما أججت، فذهبت وهي غاضبة عليه وعلى صحبه، وخطبت خطبتها الشهيرة، وما كانت عليها السلام في حاجة إلى فدك أو إلى غيرها، لا هي ولا بعلها ولا ذرِّيتها الطاهرة، إنما هو الاحتجاج الصَّارخ، والثورة العارمة على هدر حقٍّ رآه بيت النبوَّة لهم لا لغيرهم اغتصب منهم في وضح النهار، ولم تستطع الزهراء عليها السلام الصبر على ما جرى في يوم السقيفة ذاك، على إجراء الخليفة في مصادرة ميراثها من أبيها صلوات الله وسلامه عليه، بحجَّة سماعه قول النبيِّ: نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ثم ما تبعه من إجراء في حقِّ أهل البيت من خمس رسول الله، وسكوت من حوله على كلِّ ذلك وعدم اعتراضهم عليه، فخرجت في جمع من النساء تتهادى بمشيتها كأنَّها مشية رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ودخلت على أبي بكر وقد حفل مجلسه بالمهاجرين والأنصار، وكان دخولها لوحده كفيلاً بدفع ذلك الجمع إلى البكاء والعويل، فها هي سيِّدة النساء ابنة حبيب الله في مجلسهم يلفُّها الحزن والغضب من رأسها حتى أخمص قدميها يعلن دخولها عن اعتراض وحزن شديد، وما أن هدأ المجلس وكفكفت الدموع حتى انبرت في خطبة مازال دويها يصم الآذان على الرغم من كلِّ الجهود التي تكاتفت على طمسها أو إنكارها أو الاعتراض عليها بحجَّة أو بأخرى، لأنَّ من نافلة القول أن تغضب وتحتجَّ وتثور على الظلم الذي وقع عليها وعلى زوجها سلام الله

عليهما، سواء أكان ذلك من الأنصار الذين انحازوا في يومهم ذاك، ويوم سقطت حجَّتهم التفت بعضهم إلى بيت النبوَّة لتوليته الأمر بعد فوات أوانه، أو من المهاجرين الذين استمعوا إلى خطبة الغدير وغيرها في حقِّ زوجها وأهل بيتها، فكأنَّهم لم يستمعوا لا إلى حديث الثقلين، ولا إلى حديث الولاية، فحمدت الله وتشهَّدت بوحدانيَّته، ونبوَّة أبيها الذي اختاره الله، وصلَّت عليه، وتحدَّثت عما فرضه الله من طاعته، ثم قالت في موضع التذكير والترغيب والترهيب كما روى ابن أبي الحديد في شرحه ١٦/ ٣٧١ -٣٧٢: (فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمِّي دون رجالكم، فبلَّغ الرسالة صادعًا بالنذارة، مائلاً عن سَنَنِ المشركين، ضاربًا ثَبَجهم، يدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، آخذًا بأكظام المشركين؛ يهشم الأصنام، ويفلِّق الهام، حتَّى انهزم الجمع وولُّوا الدُّبر، وحتَّى تفرَّى الليل عن صبحهِ، وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدِّين، وخرست شقائق الشياطين، وتمَّت كلمة الإخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النَّار، نُهزة الطَّامع، ومذقة الشَّارب، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرق، وتقتاتون القِدَّ؛ أذلَّة خاسئين، يختطفكم النَّاس من حولكم، حتَّى أنقذكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بعد اللتيَّا والَّتي، وبعد أن مُني بهم الرجال ذؤبان العرب ومَرَدَة أهل الكتاب، ﴿وَكُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، أو نجم قَرنُ الشَّيطان، أو فغرت فاغرة قذف أخاه في لهواتها. ولا ينكفي حتَّى يطأ صِماخها بإخمصه، ويطفئ عادية لهبها بسيفه، مكدودًا في ذات الله، وأنتم في رفاهية فَكِهونَ آمنون وادعون) قال ابن أبي الحديد: إلى هنا انتهى خبر أبي العيناء عن أبي عائشة. وأمَّا عروة عن عائشة فزاد بعد هذا:

(حتى إذا اختار الله لنبيِّه دار أنبيائه، ظهرت حسيكة النفاق، وشمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفكين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم. وأطلع الشيطان رأسه صارخًا بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، ولقربه متلاحظين. ثم استنهظكم فوجدكم خِفافًا، وأحمشكم فألفاكم غِضابًا، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غيرَ شِربكم، هذا والعهد قريب، والكَلْم رحيب، والجرح لمّا يندمل، وإنّما زعمتم ذلك خوف الفتنة، ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾، فهيهات! وأنّى بكم وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، وزواجره بيِّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة. أرغبة عنه تريدون، أم لغيره تحكمون؛ بئس للظالمين بدلاً! ومن يتّبع غير الإسلام دينًا فلن يُقْبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلاّ ريث أن تسكن نَفرتها، وتُسرّون حِسْوًا في ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حزِّ المُدَى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. يابن أبي قحافة، أترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئًا فريًّا! فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم حكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون)، ثم انكفأت إلى قبر أبيها عليه السلام واستشهدت بأبيات من الشعر.

وذكر ابن أبي الحديد في ٣٤٧/١٦ بسنده عن عوانة بن الحكم قال: إنَّ الخليفة أبا بكر قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: (يا خيرة النساء، وابنة خير الآباء، والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما عملت إلاّ بأمره، وإنَّ الرائد لا

يكذب أهله، وقد قلت فأبلغت، وأغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك. أما بعد، فقد دفعت آلة رسول الله، ودابته، وحذاءه إلى عليٍّ عليه السلام، وأمَّا ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله سلم يقول: «إنَّا معاشر الأنبياء لا نورِث ذهبًا ولا فضَّة ولا أرضًا ولا عقارًا ولا دارًا، ولكنَّا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنَّة»، فقد عملت بما أمرني، ونصحت له، وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب)، وذكر أيضًا ما احتجَّت به سلام الله عليها، وما ردَّ به، وما ردت عليه وخروجها من مجلسه غضبى، وذهابها إلى مسجد الأنصار وخطبتها فيه، ثم قيام أبي بكر بعد أن وصله خبر خطبتها، فخطب، وقد استمعت إلى ما ورد في خطبته من تعريض بالمرتضى، فسمعتها وخرجت، وناقش ابن أبي الحديد الأخبار والروايات التي دارت حول هذا الموضوع في شرحه ١٦/ ٣٤٤ -٣٨٣، وهو حديث ذو شجون وفواجع استغرق نقاشه التاريخ على طوله، وكانت فدك من بعد ما بين عليٍّ وآله عليهم السلام، وما بين غيرهم عندما تغضب الدولة عليهم.

وأقف بشأن توثيق احتجاجها عليها السلام على قول الشريف المرتضى في الشرح ١٦/ ٣٧٣ قال: (وأخبرنا أبو عبد الله المرزباني قال: حدَّثني علي بن هارون، قال: أخبرني عبد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إيَّاها فدك، وقلت له: إنَّ هؤلاء يزعمون أنَّه مصنوع، وأنَّه من كلام أبي العيناء، لأنَّ الكلام منسوق البلاغة، فقال لي: رأيتُ مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلِّمونه أولادهم، وقد حدَّثني به أبي عن جدِّي يبْلُغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية، وقد حدَّث

الحسين بن علوان، عن عطيَّة العوفي، أنَّه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام، ثم قال الحسن بن زيد: وكيف تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام، وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحقّقونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه، وزاد في الأبيات بعد البيتين الأولين)، أي الأبيات التي استشهدت بها الزهراء عليها السلام في نهاية احتجاجها.

ولا أدلَّ على شديد غضبها عليها السلام من قولها الذي رواه اليعقوبي في تاريخه ١/ ٤٤٦ حين دخل إليها في مرضها نساء (رسول الله وغيرهنَّ من نساء قريش فقلن: كيف أنت؟ فقالت: أجدني والله كارهة لدنياكم، مسرورة لفراقكم، ألقى الله ورسوله بحسرات منكنَّ، فما حُفِظَ لي الحقُّ، ولا رُعِيتْ منّي الذِّمَّة، ولا قُبِلت الوصيَّة، ولا عُرِفتِ الحرمة)، وقد ذكر ابن أبي الحديد في الشرح خبر دخول النساء عليها وردها عليهنَّ بأطول من هذا.

أما قضيَّة الميراث فإن عامل ضغط هائل اضطر الخليفة إلى اتِّخاذه فيما أحسب، ولعل حاجة خلافته الماسَّة إلى المال في تلك الظروف هي التي دفعته إلى الإصرار عليه، فليست الصدِّيقة الطاهرة بحاجة إلى شاهد لإقرار حقٍّ هو في يدها، وإن كان قد سمع ما سمع من رسول الله من أمر التوريث فإن ما بيدها لا يدخل في ميراث، وعلى فرض دخوله فقد كان بالإمكان استشارة كبار الصَّحابة في التنازل عنه لسيدة نساء العالمين، أو إكرامًا لأبيها سيد المرسلين، ولا أشك أيضًا في أن أحدًا من المسلمين ما كان يعترض عليه لو قبل بشهادة الزهراء وزوجها وأم أيمن في أمر ميراثها على الرغم من عدم حاجتها إلى من يوثّق كلامها ويصدِّقها. روى البخاري في باب غزوة خيبر عن عائشة

قالت: (إن فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلّم أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ ممّا فاء عليه بالمدينة وفدك، وما بقيَ من خُمُسِ خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: « لا نوُرَثُ، ما تركنا صدقة، إنما يأكلُ آلُ محمد ﷺ من هذا المال » وإنّي والله لا أُغيِّر شيئًا من صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملنَّ فيها بما عَمِلَ به رسول الله ﷺ، فأبى أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا، فوَجَدَتْ فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تُكَلِّمه حتى تُوُفِّيت، وعاشت بعد النبي ﷺ، ستة أشهر، فلمَّا تُوُفِّيتْ دفنها زوجها ليلاً، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر، وصلّى عليها).

وأخرج الترمذي في باب ما جاء في تركة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أبي هريرة (أن فاطمة جاءت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما تسأل ميراثها من رسول الله ﷺ فقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: « إني لا أورَثُ» قالت: والله لا أكلمكما أبدًا، فماتت ولا تُكَلِّمهما)، أما الطبري فذكر في تاريخه ٧٣/٤ من طبعة الأعلمي بسنده عن عروة عن عائشة (أنَّ فاطمة والعبَّاس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهما حينئذ يطلبان أرضه بفدك وسهمه من خبر، فقال لهما أبو بكر: أما إنّي سمعت رسول الله يقول: لا نورّثُ، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال. وإنّي والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلاّ صنعته. قال: فهجرته فاطمة فلم تكلّمه في ذلك حتّى ماتت فدفنها عليٌّ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر)، ولا يستبعد أن أمرًا آخر اقتضته السياسة والحكم دفع أبا بكر إلى ذلك الموقف الغريب، وقد قال بمثل هذا بعضهم.

وغريب أن يتغيَّر موقف الخلافة زمن عمر بن الخطَّاب من ميراث رسول الله، على الرغم من وقوفه القاطع بجانب أبي بكر من قبل، وقد ذكر ما دار بشأن هذا الأمر ابن أبي الحديد في شرحه ١٦/٣٥٦ الذي ذكر أن الخليفة سلم ميراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي والعباس بشرط أن يعملا فيه عمل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعهده، ثم تحدَّث عن خصومة وقعت بين العباس وعلي في هذا الشأن رفعاها إلى الخليفة للنظر فيها، وذكر محمود شاكر في كتابه علي بن أبي طالب ١٣٣ -١٣٥ ما يقرب من هذا، قال: (كان العباس، وفاطمة رضي الله عنهما قد طلبا من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الصديق رضي الله عنه إرثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا نورث وما تركنا صدقة»، ولم يعطهما شيئًا. واستمرَّ ذلك بقية خلافة الصديق، وسنتين من خلافة الفاروق. وجاء علي والعباس إلى الفاروق يطلبان نصيبهما من فدك وغيرها، فدفعها لهما)، ثم ذكر من بعد اختلافهما.

ولقد حاول الخليفة ترضيتها من بعد، ولكنها جبهته وأخبرته أنها ستخرج من الدنيا وهي غاضبة عليه، بل إن ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة ١/٢٠ ذكر أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر (انطلق بنا إلى فاطمة، فإنا قد أغضبناها، فانطلقا جميعًا، فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليًّا فكلماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها إلى الحائط، فسلَّما عليها، فلم ترد السلام، فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحبُّ إليَّ من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت، ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك

وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله، إلاّ أني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، فقالت: أرأيتكما إن حدَّثتكما حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم. قالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبَّ فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه، فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة؛ ثم انتحب أبو بكر يبكي، حتى كادت نفسه تزهق، وهي تقول: والله لأدعونَّ الله عليك في كلِّ صلاة أصليها، ثم خرج باكيًا فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته، مسرورًا بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، أقيلوني بيعتي، قالوا يا خليفة رسول الله، إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين، فقال: والله لولا ذلك، وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة وفي عنق مسلم بيعة بعدما سمعت ورأيت من فاطمة).

كانت أوَّل أهل بيته لَحَاقًا به، وقد اخْتُلِفَ في مدَّة بقائها بعده عليهما السلام، فقال البلاذري في أنسابه ٢/٣٠: (وتوفيت فاطمة رضي الله تعالى عنها بعد النبي صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وذلك الثَّبت، ويقال: بثلاثة أشهر، ويقال: بخمس وسبعين ليلة، ويقال: بأربعين ليلة، وصلّى عليها العباس بن عبد المطّلب ونزل هو والعبَّاس في قبرها)، وقد ذكر هذا أيضًا ابن عبد البر في استيعابه

١٨٩٨/٤ ، ولكنه قال : (صلى عليها علي بن أبي طالب) ، وقال ابن الأثير في كامله ٣٤١/٢ وفي السنة الحادية عشرة (ماتت فاطمة بنت النبيّ صلى الله عليه وسلّم، لثلاث خلون من رمضان... وقيل : توفيت بعد النبي بثلاثة أشهر، وقيل : بستة أشهر، وغسّلها علي وأسماء بنت عميس، وصلّى عليها العبّاس بن عبد المطّلب، ودخل قبرها العبّاس وعلي والفضل بن العباس) ، وروى ابن عبد البر في استيعابه١٨٩٧/٤ -١٨٩٨ حكاية عن أسماء حول يومها الأخير عليها السلام ويبدو فيها مدى حيائها وحرصها على عدم رؤيتها أو رؤية جسدها حية أو ميتة ، ووصيتها بعدم دخول أحد عليها باستثناء أسماء وعلي عليه السلام، قالت :(يا أسماء إني قد استقبحت ما يُصنَع بالنساء ، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها ، فقالت أسماء : يا بنت سول الله ، ألا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة ، فدعت بجرائد رطبة فحنتها ، ثم طرحت عليها ثوبًا ، فقالت فاطمة ، ما أحسن هذا وأجمله تعرف به المرأة من الرجال ، فإذا أنا متُّ فاغسليني أنت وعليّ ، ولا تدخلي عليَّ أحدًا ، فلما توفيت جاءت عائشة تدخل فقالت لها أسماء لا تدخلي فشكت إلى أبي بكر فقالت : إن هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جعلت لها هودجًا مثل هودج العروس ، فجاء أبو بكر فوقف على الباب ، فقال : يا أسماء ، ما حملك على أن منعت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخلن على بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلت لها مثل هودج العروس ، فقالت : أمرتني إلاّ يدخل عليها أحد ، وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية ، فأمرتني أن أصنع لها ، قال أبو بكر : فاصنعي ما أمرتك به ، ثم انصرف ، فغسلها علي وأسماء) ، ولا شك أن النصّ السابق يخبر عن مدى غضبها ، إذ إنها لم ترغب أن يشارك أحد بتغسيلها باستثناء أسماء

وعلي، كما لم ترغب أن تدخل عليه النسوة، بل إنها عمَّمت كي لا يدخل عليها من لا تحبُّه.

ولا شكَّ أن أمير المؤمنين عليه السلام أوَّل من صلَّى عليها، ولا يمنع أن يصليَ عليها العباس أيضًا، ورَجَحَ أيضًا عند ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٤٠ من رواية في الصحيح من طريق الزهري عن عائشة أنها رحلت بعد رحيله بستة أشهر عليهما السلام، قال ابن كثير: (دفنت ليلاً وذلك ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة، وقيل: إنها توفيت بعده عليه السلام بشهرين، وقيل: بسبعين يومًا، وقيل: بخمسة وسبعين يومًا، وقيل: بثلاثة أشهر، وقيل: بثمانية أشهر، والصَّحيح ما ثبت في الصَّحيح من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أن فاطمة عاشت بعد النبي صلى الله عليه وسلَّم ستة أشهر، ودُفِنت ليلاً)، أما اليعقوبي في تاريخه ١/ ٤٤٥ فذكر أنها توفيت (بعده بأربعين ليلة، وقال قوم: بسبعين ليلة، وقال آخرون ثلاثين ليلة؛ وقال آخرون: ستة أشهر، وأوصت عليًّا زوجها أن يغسلها، وأعانته أسماء بنت عميس، وكانت تخدمها وتقوم عليها). وروى ابن عساكر ٣/ ١٢٥ -١٦٠ أيضًا روايات مختلفة حول تاريخ وفاتها تذهب بعضها إلى أنها توفيت بعده بشهرين، وبعضها بسبعين يومًا، وبعضها بثلاثة أشهر، وبعضها بستة أشهر وبعضها بثمانية أشهر، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/١٨٩٨ -١٨٩٩ روايات حول تاريخ وفاتها والاختلاف فيه: قال:

- (قال محمد بن علي: توفيت بعد رسول الله بستة أشهر، وروي عنه أيضًا أنها لبثت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشهر، وقيل: ماتت بعد وفاته بمائة يوم.

- قال الواقدي عن عائشة، وعن الزهري عن عروة: إن فاطمة توفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، قال محمد بن عمر، وهو أشبه عندنا، قال: وتوفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة ١١ للهجرة.

- قال عبد الله بن الحارث، وعمر بن دينار: توفيت بعد أبيها بثمانية أشهر.

- قال ابن بريدة: عاشت بعده سبعين يومًا.

- روى عبد الله بن الحسن في مجلس هشام بن عبد الملك أنه قال: توفيت فاطمة ولها من العمر ٣٠ سنة).

وذكر الدكتور فاضل الميلاني في كتابه الزهراء أم أبيها ٢٢٩ أن وفاتها كانت (ليلة الثالث من جمادى الثانية عام ١١ للهجرة)، أما حسين الشاكري في كتابه فاطمة الزهراء ٣٥٨ -٣٥٩ فرجح عنده أن رحيلها كان بعد رحيل المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما بثلاثة أشهر، وقال: (وهناك أحاديث واردة عن أئمَّة أهل البيت عليهم السلام كانت ولا تزال مورد الاعتبار والاعتماد، ففي كتاب دلائل الإمامة للطبري الإمامي بإسناده عن الإمام الصَّادق عليه السلام: إنها قُبِضَت في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء لثلاث خلون منه سنة إحدى عشرة من الهجرة).

وذكر الشيخ اليوسفي الغروي روايات عدَّة عن أئمة أهل البيت وعلمائهم في موسوعته ١٥٨/٤ -١٦١، بشأن تاريخ وفاتها عليها السلام، وقد رجَّح وإن لم يصرِّح أنها انتقلت إلى الرفيق الأعلى عليها السلام بعد رحيل أبيها بخمسة وتسعين يومًا.

ولا شكّ أنها أوصت قبل رحيلها عليها السلام، وقد ذكر وصيتها المجلسي في بحاره ٤٣/ ٢١٤ عن ابن عباس، وهي فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، أوصت وهي تشهدُ أن لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنّ الجنَّة حقٌّ، والنار حقٌّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

يا علي: أنا فاطمة بنت محمد، زوَّجني الله منك لأكون لك في الدنيا والآخرة، أنت أولى بي من غيري، حنطني وغسِّلني وكفِّني بالليل، وصلِّ عليَّ، وادفنّي بالليل، ولا تُعْلِم أحدًا. وأستودعك الله وأقرأ على ولدي السلام إلى يوم القيامة).

في تلك الظروف العصيبة البالغة التعقيد، ووسط أجواء الحزن التي كانت تعمر بيت الإمام عليه السلام رحلت الزهراء عليها السلام، ولا شك أنه يوم رحلت تذكّر حديث أخيه صلوات الله عليهما في مرضه الذي رواه جابر بن عبد الله الأنصاري كما جاء في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٢٥٨ برقم ١٩١ يوم قال له: «سلام عليك أبا الريحانتين من الدنيا، فعن قليل يذهب ركناك، والله خليفتي عليك»، فذهب ركن يوم رحيل أبي الزهراء، واليوم غيَّب الركن الثّاني، فمن يستطيع مواساته في مصابه الجلل ذاك؟!!

لا شكّ أنه عليه السلام لم يجد غير قبر النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم يلوذ به في ذلك اليوم، وقد لاذ، فكان نعم الملاذ.

قبر الزهراء

«يا أهل الجمع غضُّوا أبصاركم حتى تمرَّ فاطمة بنت رسول الله»

هنيئًا للزهراء البتول رحليها، فقد أعدَّ لها الله ما يمكن أن نتخيَّله من احتفاء بامرأة هي سيِّدة بنات حوَّاء، وبأيَّة فرحة استقبلها الراحل العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم يوم قدمت عليه، وبأيّ شوق استقبلته بعد كلِّ الحزن الذي تمكَّن منها بسبب فراقه حتى أمست لا تقوى على الحركة وهي في ربيع العمر، وبعد مشاعر الإحساس بالظلم الذي أحاط بها وبزوجها منذ رحيله؟!! لقد انتهى كل ذلك إلى غير رجعة، وحلَّ مكانه النعيم الدائم في رحاب الله، وهي الآن بين يدي كريم منحها مجد الدارين باستحقاق، فأيُّ نور غمر الروضة المباركة التي توسَّدتها في تلك الليلة الشديدة الإظلام التي مرَّت على أبي السبطين وولديه سيدي شباب أهل الجنَّة وعقيلتيه زينب وأم كلثوم عليهم السلام؟!!، ترى هل استطاع صوت السماء أن يهبط إلى الأرض فيزلزلها، وهل استمع سكانها إلى ذلك الصوت الذي صمَّ آذان سكان الجنان؟: «يا أهل الجمع غضُّوا أبصاركم حتى تمرَّ فاطمة بنت رسول الله»!!

ذلك بهاء رحلت إليه، وهذا ليل شديد العتمة خلَّفته من ورائها لأبي الحسنين عليه السلام، ومازالت أمامه أيَّام أشد سوادًا من حنك الغراب، فأين سيذهب بكلِّ ذلك الحمل؟ لا شكَّ أنه لم يكن أمامه إلاَّ تلمُّس الطريق في ذلك الدامس إلى قبر أخيه صلى الله عليه وآله وسلم كي يناجيه ويهدئ من

روعه، ويخفّف من عتمة تلك الوحشة الرهيبة التي حلّت في بيته، ولعلّه وهو في طريقه غصَّ بكأس أشدَّ مرارة من العلقم، فالمصاب جلل، وزاد من وقعه ما أحاط به من ظروف وقفنا عليها في الجزء الثاني من كتابنا «وما أدراك ما علي» ولعلَّ ما هوَّن عليه مرارته يقينه أنه لاحق بهما لا محالة بعد حين ليس ببعيد سيمرُّ مثل لمح من بصر بكلِّ مآسيه وأحزانه ومحنه، سيمرُّ لأنّه بعين الله وخدمة لدينه الحنيف! جاء في النهج ٤٨٩ وشرحه ٣٩٤/١٠ أنه عليه السلام خاطب أخاه بقوله: (السلام عليك يا رسول الله عنّي، وعن ابنتك النَّازلة في جوارك، والسَّريعة اللحاق بك! قلَّ يا رسول الله عن صفيَّتك صبري، ورقَّ عنها تَجَلُّدي، إلاّ أن في التأسِّي لي بعظيم فرقتك، وفادح مُصيبتك موضع تَعزٍّ. فلقد وسَّدتُك في ملحودة قبركَ، وفاضت بين نحري وصدري نفسُك، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! فلقد استُرْجِعتِ الوديعةُ، وأُخِذت الرَّهينةُ!

أمَّا حُزْنِي فَسَرْمدٌ، وأمَّا ليلي فمُسَهَّدٌ، إلى أن يختارَ اللهُ لي دارك التي أنت بها مقيمٌ. وستُنْبِئُكَ ابنتُك بتضافُرِ أُمَّتِك على هضمِها، فأحْفِها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطُلِ العهدُ، ولم يخلُ منك الذِّكر، والسلام عليكما سلامَ مودِّعٍ، لا قالٍ ولا سَئِمٍ، فإن أنصَرِفْ فلا عن مَلالَةٍ، وإن أُقِم فلا عن سُوء ظنٍّ بما وعد اللهُ الصَّابرين).

ولم يكن القرار الذي اتَّخذته الزهراء بشأن دفنها مبعثه الغضب على ما أعتقد، أو الحرص على مال اغتصب منها، فما كان للمال يومًا دخل في حسابات أهل البيت عليهم السلام، وإن دخل فليس في حساب الرفاهية والعيش الرغيد، فهو يخرج يوم دخوله، لفقير أو مسكين، وما أكثرهم في

ذلك الزمن الصَّعب، لقد أرادته تعبيرًا عن الظلم الذي لحق بها وبزوجها، وسيلحق بذريتها من بعد، وأرادته أيضًا درسًا للأمة كي لا تستكين على الظلم وتسكت عليه على مر الدهور، وأرادته أيضًا عبرة لها تتذكرها حينما يتمكن الباطل من الحقِّ، وهو أمر يحتاج إلى وقفة تأمل أخرى، ولا أشك في أنها اتخذته بعد دراسة وروية، ولتوكيد غضبها واحتجاجها طلبت من زوجها عليهما السلام ألا يشهد أحد جنازتها ممن كانت غاضبة عليهم، وأن تدفن ليلا، فنفَّذ الإمام وصيتها كما أرادت، ودفنها ليلاً كما ذكر البلاذري في أنسابه ٥٣٥/٢ وروى أيضًا في ٥٣٦/٢ عن محمد بن سعد: (كانت وفاتها، فيما ذكر الواقدي وغيره ليلة الثلاثاء لثلاث ليال خلون من شهر رمضان، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال لفاطمة: « أنت أسرع أهلي لحاقًا بي»، فوجمت، فقال لها: « أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنَّة؟»، فتبسَّمت، قالوا: وأوصت فاطمة أن تحمل على سرير طاهر، فقالت لها أسماء بنت عميس: أصنع لك نعشًا كما رأيت أهل الحبشة يصنعون، فأرسلت إلى جريد رطب فقطعته، ثم جعلت لها نعشًا فتبسمت ولم تر متبسمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلا ساعتها تيك، وغسَّلها علي وأسماء، وبذلك أوصت. ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها).

وروى الحاكم في مستدركه أن السيدة عائشة قالت: (دفنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً دفنها علي بن أبي طالب ولم يشعر بها أبو بكر رضي الله عنه حتى دفنت وصلى عليها علي بن أبي طالب).

ومن غرائب شيخ المحققين محمود شاكر وما أكثر غرائبه في كتابه علي بن أبي طالب ٤١٨ قوله بعد تحديده تاريخ رحيلها اعتمادًا على إحدى روايات

ابن سعد: (وصلّى عليها أبو بكر، ونزل في حفرتها علي والعبَّاس، ودفنت ليلاً)، وغريب محمود شاكر أخذه بهذه الرواية، وإن كانت بين روايات أخر ذكرها ابن سعد في طبقاته ٨/ ٢٩، وهو المحقق الذي عرف بدقّة تحقيقاته وبعدها عن التسرُّع، فما أخذ أحد ممن كتب عن الزهراء بهذه الرواية ولا وقف عندها وقوف مؤيد أو متشكك بعدم صحَّتها.

ودفنت، والسؤال المحيِّر هو أية بقعة اختارها عليه السلام لمرقدها المقدس؟

ومن نعماء الله سبحانه وتعالى أن كتب لي في أخريات خريف العمر زيارة بيته المعظم مرَّات عدَّة، وفي كلِّ مرَّة أسعد فيها بزيارة الروضة المباركة في مدينته الطيبة صلى الله عليه وآله وسلَّم كنت أسارع للذهاب إلى البقيع في الوقت الضيق الذي يسمح فيه بالدخول إليه لتحية أهل بيته، والتشرف بزيارتهم والسلام عليهم وعلى صحابته الطيبين رضوان الله عليهم، وتذكُّر حياتهم والتفكُّر بها، وكانت البتول في كل مرة تشخص بقامتها الفارعة وبهائها ونورانيتها التي تشق الحجب وسط تلك الساحة المقدسة، سعيدة بزوارها وزوَّار بنيها، يشرق جبينها بابتسامة تحاكي عظمة المجد الذي خلَّد أباها وخلَّدها وخلَّد زوجها وذريتها صلوات الله عليهم أجمعين، فأحاول بكل ما أوتيت من جهد الإمساك بخيط من ذلك البهاء ما بين قبره صلوات الله عليه والبقيع كي أصل إلى البقعة المقدسة التي دفنت فيها، ولكن بدون جدوى، ومرت ليال كثيرة في الأراضي المقدسة أو في خارجها وأنا أدعو الله مخلصًا أن أتعرَّف على مكان قبرها عليها السلام، نعم خيل إليَّ في مرَّة أني وسط ضريح لا يختلف عن الروضة المحمدية المشرفة وكأنه ضريح الزهراء.

وقد اختلط أمر قبرها على الناس منذ رحيلها، وسيبقى أمره في علم الله لا يستطيع أحدٌ الجزم بموضعه إلا أن يأذن سبحانه وتعالى، وقد دارت حوله روايات، ولكنها لم تجزم بموقعه، أما روايات الإماميَّة فقد نقل غالبيَّتها محمد حسين الجلالي في كتابه الاكتفاء منها رواية في ١٧٢ عن الشيخ الطوسي الذي قال: (اختلف أصحابنا في موضع قبرها، فقال بعضهم: إنها دفنت في البقيع، وقال بعضهم: إنها دفنت بالروضة، وقال بعضهم: إنها دفنت في بيتها فلمَّا زاد بنو أميَّة في المسجد صارت في جملة المسجد. وهاتان الروايتان كالمتقاربتين، والأفضل عندي أن يزور الإنسان في الموضعين جميعًا، إنه لا يضرُّ ذلك، ويحوز به أجرًا عظيمًا، وأما من قال: إنها دفنت في البقيع فبعيد عن الصواب)، ورواية دفنها في بيتها وصيرورة قبرها في المسجد ذكرها الكليني في الكافي ١/ ٤٦١ أيضًا.

وأخرى ذكرها الجلالي في ١٦٣ عن محمد بن همام أنه دفنها عليهما السلام في البقيع، وعمى قبرها، وزيادة في الإيهام حفر قبورًا فيه، قال محمد: (وأصبح البقيع ليلة دفنت فيه أربعون قبرًا جددًا)، ثم ذكر ما رافق حكاية دفنها من محاولات لمعرفة مكانه لإخراجها والصلاة عليها، وروى في ١٦٥ عن الصدوق رواية ذكر فيها من شهد الصلاة عليها، عليها السلام، وهم أبو ذر، وسلمان، والمقداد، وعمَّار، وحذيفة، وعبد الله بن مسعود، وذكر في الصحيفة نفسها رواية عن القتال يبدو فيها أنها دفنت في البقيع قال: (فلمَّا هدأت العيون ومضى شطر من الليل أخرجها علي والحسن والحسين رضي الله عنهما وعمار والمقداد وعقيل والزبير وأبو ذرٍّ وسلمان وبريدة ونفر من بني هاشم وخواصه، صلوا عليها ودفنوها في جوف الليل، وسوَّى علي رضي

الله عنه حواليها قبورًا مزوَّرة سبعة حتى لا يعرف قبرها، وقال بعضهم من الخاص: قبرها سُوِّي مع الأرض مستويًا، فمسح مسحًا سواء مع الأرض حتى لا يعرف موضعه). وروى عن الإربلّي في ١٦٨ (فغسلوها وكفنوها وحنطوها وصلوا عليها ليلاً ودفنوها بالبقيع، وماتت بعد العصر).

البقيع الشريف عام ١٣٤٣ للهجرة ـ ١٩٢٤م.. وتبدو القبة الكبرى المبنية على قبور الأئمة عليهم السلام

صورة قديمة لمقبرة البقيع

ووقفت على روايات أخر بشأن قبرها في كتب علماء أهل الحديث وغيرهم، منها ما ذكره ابن سعد في طبقاته ١٩/٨ -٢٠ عن محمد بن عمر قال: (سألت عبد الرحمن بن أبي الموالي قال: إن الناس يقولون: إن قبر فاطمة عند المسجد الذي يُصَلُّونَ إليه على جنائزهم بالبقيع، فقال: والله ما ذاك إلاّ مسجد رُقَيَّة -يعني امرأة عَمَّرَتْهُ - وما دفنت فاطمة إلاّ في زاوية دار عقيلٍ مما يلي دار الجَحْشِيِّينَ مُسْتقبلَ خرجةِ بني نبيه من بني عبد الدار بالبقيع، وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع)، وروى ابن سعد أيضًا في المصدر نفسه (عن عبد الله بن الحسن قال: وجدت المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام واقفًا ينتظرني بالبقيع نصفَ النهار في حرٍّ شديد، فقلت: ما يوقِفُك يا أبا هاشم هاهنا؟ قال: انتظرك، بلغني أن فاطمة دفنت في هذا البيت في دار عقيل مما يلي دار الجحشيين، فأحبُّ أن تبتاعه لي بما بلغ أُدْفَنُ فيها، فقال عبد الله: والله لأفعلنَّ، فجهد بالعقيليِّين فأبوا، قال عبد الله بن جعفر: وما رأيت أحدًا يشكُّ أن قبرها في ذلك الموضع)، ولا يدرى على وجه التحديد أين موقع هذه الزاوية، وماذا حلَّ بدار عقيل تلك، بعد هدم كل شواهد البقيع وتسويتها بالأرض، ولم يبق من أثر لتلك الدور التي كانت فيه ولا للمزارات التي كانت تعمره بعد أن أزيلت جميعها، ولعلَّ تلك الزاوية هي البقعة التي دفن فيها أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وذكر الشريف المرتضى في الشافي ١١٥/٤ (وروي أنه عليه السلام - أي الإمام - عمَّى على قبرها، ورشَّ أربعين قبرًا في البقيع، ولم يرش على قبرها حتى لا يهتديا إليه)، وكانت الزهراء عليها السلام قد أذنت لأبي بكر وعمر بالدخول عليها بعد إلحاحهما على الإمام عليه السلام بسبب رفضها

الإذن لهما، ولكنَّها لم تكلّمهما كما ذكر الشريف المرتضى، وبعد خروجهما (قالت لأمير المؤمنين عليه السلام: أليس قد صنعت ما أردت؟ قال: نعم. قالت: فهل أنت صانع ما آمرك قال: نعم. قالت: فإني أنشدك الله أن لا يصلّيا على جنازتي ولا يقوما على قبري).

ولم أقف على حديث دار بين الإمام وخاصة صحابته حول موقع ضريحها الطاهر.

ومرَّت عقود وقرون، وكتبت مئات الكتب والمقالات حول الزهراء سيرةً وعصمةً ومكانة، والروايات عينها تتكرر في كتب الأقدمين كما تكررت في كتب المحدثين، - (ينظر في حكاية تشييعها ودفنها كتاب فاطمة الزهراء لحسين الشاكري ٣٤٤ - ٣٥٠ وقد استقى معلوماته من البحار ومستدرك الوسائل وخصال الصدوق، وانظر أيضًا كتاب فاطمة الزهراء أم أبيها ٢٢٩

-٢٣٠ للدكتور فاضل الميلاني ولم يذكر مصدرًا لمعلوماته الشديدة الإيجاز بهذا الخصوص) - وجميعها انحصرت في اتجاهين:

اتجاه يذهب إلى أن أمير المؤمنين عليه السلام دفنها في بيتها، وتذكر بعض كتب سيرتها عليها السلام أن هذا الاتجاه تؤيده رواية عن الإمام الرضا عليه السلام، بل إن ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣هـ روى في كتابه الدرة الثمينة في أخبار المدينة ١٨٠ بسند يرفعه إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه كان يقول: (قبر فاطمة رضي الله عنها في بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في المسجد، قلت: وبيتها اليوم حوله مقصورة وفيه محراب، وهو خلف حجرة النبي)، ولكن محقق كتاب الدرَّة عبد الرزاق المهدي علق في الهامش بقوله: (إسناده ضعيف جدًّا لأجل محمد بن الحسن، وهو ابن زبالة، فإنه متروك...) ومحمد بن الحسن هذا أحد رواة سند ابن النجار، ووثَّق تركه الشيخ محمد حسن المظفر في كتابه الإفصاح عن أحوال رواة الصحاح ٤١١/٣ -٤١٢ من أمهات كتب الحديث والرجال.

وتحدث حاتم عمر طه في كتابه (الكوكب الدري الحجرات بيوت النبي عليه السلام) في مبحث (الحجرات البناء والتعمير) ص ٩٤ عن زيارة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨هـ لقبر النبي صلوات اله وسلامه عليه فقال: (أحدث الظاهر بيبرس حول الحجرة النبوية - بيت عائشة - وقبر السيدة فاطمة الزهراء المزعوم، وبيتها جزء من بيوت النبي صلى الله عليه وسلم التي كان قد تم إزالتها في العمارات السابقة أحدث حولها جميعًا مقصورة من الخشب بارتفاع نحو القامتين حوالي ثلاثة ونصف متر. ثم زاد في هذا الارتفاع الملك

العادل كتبغا حتى وصل ارتفاع المقصورة إلى سقف المسجد وتضم المقصورة كل من :

❖ بيت السيدة عائشة رضي الله عنها الذي بداخله الحجرة النبوية الشريفة.

❖ بيت السيدة فاطمة الزهراء الذي يحتوي الصندوق الذي يدَّعِي البعض بأنه قبر السيدة فاطمة ، وهذا خلاف الثابت بأنها مدفونة في بقيع الغرقد على معظم الروايات الثابت صحتها

❖ محراب السيدة فاطمة الزهراء.

❖ معرس سيدنا علي بن أبي طالب على السيدة فاطمة الزهراء.

❖ مقام جبريل عليه السلام وهو في الركن الشمالي الغربي من الضلع الغربي للحجرة الشريفة ...) ، وتحدث أيضًا في الصحيفة ٩٥ عن عمارة السلطان قايتباي سنة ٨٨٨هـ فقال : (في هذه العمارة تم استبدال المقصورة الخشب بالنحاس والحديد المشغول والمشبك وجُعِل متصلاً بالعقود التي حول الحجرة والمقصورتين الشمالية والجنوبية متصلتان ببابين. وجعل في هذا الشبك ستة أبواب ، باب قبلي -باب التوبة - وهو مقابل الوجه الشريف ، باب شرقي -باب فاطمة - ، وهذا الباب هو الذي يستخدم حاليًّا ، باب غربي على الروضة -باب الوفود - وباب شمالي - باب التهجد - مجاورًا لمحراب تهجده صلى الله عليه وسلم ، وبابين تصل بين المقصورتين داخلية على يمين ويسار صندوق فاطمة المزعوم أنه قبرها).

ولم أقف على ما يجعلني أطمئن إلى صدور الرواية عن الإمام جعفر الصادق ، ولا عن الإمام الرضا عليهما السلام ، إذا إنها لو صحت عنهما فإن الأمر لا يحتاج إلى فضل تأمل ، وما يجعلني أبعد هذا الاحتمال قربه إلى

الاستحالة، إذ كيف يتسنى للمرتضى أن يحفر لها قبرًا في بيتها بتلك التربة القاسية من دون أن يشعر به أحد ممن يسكن في الجوار، ولاسيما من أمهات المؤمنين بعد أن أعلمهم بتأجيل تشييعها إلى الغد من تلك الليلة التي انتقلت فيها إلى الرفيق الأعلى، ثم يسعفه الوقت فيذهب بعد ذلك إلى البقيع كي يحفر فيه قبورًا عدة في محاولة لتعمية الأمر، وإذا كانت قد دفنت في بيتها عليها السلام، فلماذا لم يدفن الإمام الحسين أخاه الحسن الزكي سلام الله عليهما بجوارها بعد تعذُّر دفنه بجوار جدِّه صلى الله عليه وآله، فلو كانت فيه لدفنه بجوارها في بيتها ولما استطاع أحد أن يمنعه.

ويذهب الاتجاه الثاني -وهو مؤيد من غالبية من تحدث عن سيرتها قديمًا وحديثًا - إلى أنه عليه السلام دفنها في البقيع، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٤٠/٥ وابن حجر في الإصابة ٣٧٧/٤ -٣٨٠ وغيرهما، بعد أن صلى عليها خاصة أهل بيته وصحابته، وهم كما ذكر الشاكري في كتابه فاطمة الزهراء ٣٤٧ عن مصادره (سلمان، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، والمقداد، وحذيفة، وعبد الله بن مسعود، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وعقيل، والزبير، وبريدة، ونفر من بني هاشم) وفي مقدمتهم بالتأكيد الإمام وولديه الحسن والحسين عليهم السلام، ويبدو أنه طلب منهم بعد وصولهم البقيع العودة من حيث أتوا امتثالاً لرغبة الزهراء عليها السلام، أو أنهم رافقوه إلى البقيع، وشاركوا في دفنها، ولكنه حدَّثهم بوصيَّتها، فامتثلوا لها، فما أخبروا أحدًا بموضع قبرها.

وإذا كان قد دفنها في البقيع، فأكاد أجزم أنه اختار لها في تلك البقعة الطاهرة جوار أحب النِّساء إليه وإليها وإلى أبيها صلوات الله عليهم، وهو جوار قبر

فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها - التي دُفِن بجوارها في البقعة نفسها العباس بن عبد المطّلب رضوان الله عليه كما ذكر ابن شبّة في كتابه تاريخ المدينة ١/١١٠ السيدة التي نزل الرسول إلى قبرها، ونام فيه، ووضع خده المقدس على ترابه، كي يخفف عليها ضغطة القبر، بل إن الحاكم في مستدركه ٣/١٠٨ روى بسنده أن الرسول كبَّر عليها سبعين تكبيرةً، وقد أشارَ إلى نزوله صلى الله عليه وآله وسلم قبرها البلاذري في أنسابه ٢/٢٩٣، وعلى الرغم من روايات البلاذري في أنسابه ٢/٢٩٤ التي تذهب إلى تأخر إسلامها، فإنه روى في الصفحة نفسها بسنده عن هبيرة بن يريم عن الإمام عليه السلام أنه قال: (أهديت إلى النبي ﷺ حلّة حرير فبعث بها إلي وقال: «إني لم أبعثها إليك لتلبسها إني أكره لك ما أكره لنفسي ولكن اقطعها خمرًا واكسها فاطمة أمك وفاطمة ابنتي»). ولكنه عاد فقال في ٢/٢٩٥: حدثني أبو بكر الأعين، قال: سألت أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين عن حديث هبيرة بن مَرِيم فقالا: قد روى ما رووا، وليست هجرة أم علي وإسلامها عندنا بمشهور، والله أعلم). وينفي كل ذلك الشك أن ابن سعد في طبقاته ٨/٢٢٢ ذكرها في أوّل الفصل الذي عقده بعنوان (تسمية النِّساء المسلمات المبايعات)، وترجم لها فيه وقال من بين ما قال: (وأسلمت فاطمة بنت أسد، وكانت امرأة صالحة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يزورها ويقيل في بيتها)، ووثّق إسلامها رضوان الله عليها أيضًا ابن قتيبة في معارفه ٢٠٣ ولا أدري أي شيء لم يذرَّ التراب به في سيرة أبي السبطين، وإنا لله وإنا إليه راجعون!!. وعلى سبيل الاستئناس وليس التوثيق فإن مما يؤكد أنها كانت على قيد الحياة بعد فتح خيبر أن الرسول صلوات الله عليه قد خصَّها من مغانمه، فقد ذكر ابن هشام في سيرته ٣/٣٦٤ أنه أعطاها أربعين وسقًا.

وذكر المهندس عمر طه وصاحبه في كتابهما بقيع الغرقد ٦٩ رواية استقاها من كتاب تاريخ المدينة لابن شبَّة ١٢٤/١ عن جابر بن عبد الله أنه قال: (بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتى آت فقال: يا رسول الله إن أم علي وجعفر وعقيل قد ماتت، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا بنا إلى أمي» فقمنا وكأنَّ على رؤوس من معه الطير فلمَّا انتهينا إلى الباب نزع قميصه فقال: « إذا غسلتموها فأشعروها إيَّاه تحت أكفانها»، فلمَّا خرجوا بها جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّة يحمل ومرَّة يتقدَّم ومرَّة يتأخَّر حتى انتهينا إلى القبر، فتمعك في اللحد، ثم خرج فقال: «باسم الله وعلى اسم الله»، فلمّا أن دفنوها قام قائمًا فقال: «جزاك الله من أمٍّ وربيبة خيرًا، فنعم الأم ونعم الربيبة كنت لي» قال: فقلنا له أو قيل له: يا رسول الله لقد صنعت شيئين ما رأيناك صنعت مثلهما قط قال: «ما هو؟ » قلنا: بنزعك قميصك، وتمعكك في اللحد. قال: «أما قميصي فأردت ألاَّ تمسَّها النار أبدًا إن شاء الله، وأما تمعكي في اللحد فأردت أن يوسع الله عليها قبرها»، وفي رواية قال: « ما أعفي أحد من ضغطة القبر إلاَّ فاطمة بنت أسد»، قيل يا رسول الله ولا القاسم؟ قال: «ولا إبراهيم») وقد نقلا النص المذكور من كتاب تاريخ المدينة لابن شبة ١٢٤/١.

وذكر الشيخ الطوسي في تهذيبه ٢٢٦/٣ -٢٢٧ أن أحمد بن أبي نصر قال: (سألت أبا الحسن عليه السلام عن قبر فاطمة عليها السلام فقال: دفنت في بيتها فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد).

وكان الشيخ اليوسفي الغروي كتب بحثًا في موسوعته التاريخ الإسلامي ١٦١/٤ -١٦٤ ذكر فيه ما ورد بشأن قبر الزهراء عليها السلام من روايات

عن علماء مذهب أهل البيت، وذكر اختلافهم في أمر دفنها ما بين بيتها وما بين البقيع، ولكنه رجح دفنها في بيتها اعتمادًا على رواية عن أحمد البزنطي عن الإمام الرضا، وهي رواية من الصعب الأخذ بها ولاسيما أنه انفرد بروايتها.

ولعل ما يؤيد اتجاه دفنها عليها السلام بجوار فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها أن أمر قبر الزهراء لا يمكن أن يكون خافيًا على ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، ولا يمكن عقلا أن يكون الإمام الحسين يعرف أن ضريح والدته البتول في بيتها، ويدفن أخاه الحسن بعيدًا عنه، وعلى هذا التصور تكون البقة المباركة التي دفنت فيها الزهراء عليها السلام هي البقعة عينها التي دفنت فيها أم الإمام المرتضى، ودفن فيها من بعد أيضًا الإمام الحسن والإمام علي بن الحسين والإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق عليهم السلام، ولعلَّ ما يوثّق هذا التصوُّر ما ذكره أبو الفرج في مقاتله ٨١ (ودُفِنَ الحسن في جنب قبر فاطمة بنت رسول الله صلى عليه وسلم في البقيع في ظلة بني نُبيه) وما ذكره المسعودي في مروجه ٣/ ٢٩٧ أثناء حديثه عن تاريخ وفاة الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، إذ قال: (وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأمم، ومحي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عنهم)، وقد تقدَّمهم في البقعة نفسها الطاهرة قبر العباس بن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه كما هو معروف.

ولعلَّ ما يوثّق ما ذهبت إليه أيضًا ما رواه ابن عساكر في ترجمة الإمام الحسن بتاريخه ٢١٦ بسنده عن أبي عتيق الذي قال: (سمعت جابر بن عبد الله يقول: شهدنا الحسن بن علي يوم مات، فكادت الفتنة تقع بين حسين بن علي ومروان بن الحكم، وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فإن خاف أن يكون في ذلك قتال فليدفن بالبقيع، فأبى مروان أن يدعه - ومروان يومئذ معزول يريد أن يرضي معاوية بذلك فلم يزل مروان عدوًّا لبني هاشم حتى مات - قال جابر: فكلّمت يومئذ حسين بن علي فقلت: يا أبا عبد الله اتقِ الله فإن أخاك كان لا يحبُّ ما ترى فادفنه بالبقيع مع أمِّه. ففعل الحسين ذلك)، وروى ابن عساكر في المصدر السابق نفسه بسنده عن ابن عمر الذي حضر موت الحسن عليه السلام بحسب الرواية وقال للحسين عليه السلام أيضًا: (ادفن أخاك إلى جنب أمِّه، فإن أخاك قد عهد بذلك إليك)، وروى في المصدر السابق ٢١٨ -٢١٩ رواية أخرى من غير طريق حول دفن الإمام الحسن بجنب أمِّه الزهراء عليهما السلام بوصيَّة منه إن تعذَّر دفنه بجنب رسول الله، منها، أنه (أرسل إلى عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلّم أن تأذن له أن يدفن مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم في بيتها. فقالت: نعم بقي موضع قبر واحد قد كنت أحب أن أدفن فيه وأنا أوثرك به. فلمَّا سمعت بنو أميَّة بذلك لبسوا السلاح فاستلئموا به، وكان الذي قام بذلك مروان بن الحكم فقال: والله لا يدفن عثمان بالبقيع ويدفن حسن مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولبست بنوا هاشم السلاح، هموا بالقتال، وبلغ ذلك الحسن بن عليّ فأرسل إلى بني هاشم فقال لهم رسوله: يقول لكم الحسن: أما إذا بلغ الأمر هذا فلا حاجة لي به، ادفنوني إلى جنب

أمّي فاطمة بالبقيع، فدفن إلى جنب أمّه فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم) والرواية فيه بسندها حديث عن (فائد مولى عبادل أن عبيد الله بن أبي رافع وغيره من مشيختهم)، وذكر الرواية بسند آخر عن فائد مولى عبادل (أن عبيد الله بن علي أخبره وغيره ممن مضى من أهل بيته)، ثم ذكر الرواية السابقة بشأن دفن الحسن بجوار الزهراء سلام الله عليهما، والرواية في مقاتل أبي الفرج ٨٢ عن قائد مولى عباد.

وقد وهم المهندس حاتم عمر طه وصاحبه في كتابهما بقيع الغرقد فذكرا في الصحيفة ٦٩ أن قبر فاطمة بنت أسد سادس قبر بجوار قبر عثمان بن مضعون رضي الله عنه وهو أول من دفن من المهاجرين، وعلقا بقولهما بشأن قبر أم الإمام عليه السلام : (على ما رجَّحه المؤرخون) ولم يذكرا أحدًا منهم في الحاشية أو المتن ووقعا في وهم آخر بشأن البقعة التي فيها قبور أهل بيت النبوة صلوات الله وسلامه عليهم إذ قالا : وفيها القبور الآتية :

السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو القبر الواقع على يمين الزائر ويليه إلى اليسار قبر العباس بن عبد المطلب والقبر المشار إليه على اليمين هو قبر فاطمة بنت أسد وليس قبر الزهراء عليها السلام، إذ إن قبرها الشريف غير معلّم بعلامة أو شاهد، وذكرا أيضًا أن في هذه البقعة دفن رأس الحسين عليه السلام - على بعض الروايات - والثابت عند أهل بيته عليهم السلام، وعند علماء مذهبهم وجمهور من علماء المسلمين أن رأسه الشريف أعيد إلى جسده بكربلاء المقدَّسة.

ومن الأوهام التي وقعا فيها أنهما ذكرا أن في البقعة المذكورة قبر (سيدنا علي الخليفة الرابع ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، كما نقله

السمهودي عن الزبير بن بكار أن الحسن ابنه نقله إلى المدينة ودفنه بالبقيع). ولقد فصَّلت القول في أمر قبر أمير المؤمنين عليه السلام في المبحث الخاص بضريحه المقدَّس بمدينة الإمام النجف الأشرف، وبيَّنت بطلان هذه الرواية.

وذكر ابن النجار (ت ٦٤٣هـ) في كتابه الدرة الثمينة في أخبار المدينة ٣٠٧ (وليس في يومنا هذا مُعيَّنٌ إلاّ تسعة قبور: قبر العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه ملبن ساج، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، ومعه في القبر ابن أخيه علي بن الحسين زين العابدين، وأبو جعفر محمدَّ بن علي الباقر، وابنه جعفر الصادق. والقبران في قبَّة كبيرة عالية قديمة البناء في أوَّل البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما في كلِّ يوم للزيارة، رضي الله عنهم أجمعين، وروي عن عبيد الله بن علي بن الحسن بن علي قال: ادفنوني إلى جنب أمي فاطمة بالمقبرة، فدفن إلى جنبها بالمقبرة. وقال سعيد بن محمد بن جُبير: رأيت قبر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند فم الزقاق الذي بين دار نبيه بذروان -كذا -وبين دار علي بن أبي طالب، وقيل لي: دفن عند قبر أمه. ورُوي أن فائد مولى عبادل قال: حدَّثني الحفَّار أنَّه حفر لإنسان، فوجد قبرًا على سبعة أذرع من خوخة بيته مشرِفًا عليه لوح مكتوب: هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم. قلت: فعلى هذا، هي مع الحسن في القبَّة، فينبغي أن يُسلَّم عليها هنالك).

ووقع ابن النجار أو محقق كتابه أو طابعه في خلط غريب بشأن قبر فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها في أثناء حديثه عن قبر عبد الرحمن بن عوف فذكر في ٣١٠ من كتابه: (أرسلت عائشة رضي الله عنها إلى عبد الرحمن بن

عوف حين نزل به الموت: أن هلمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى إخوانك، فقال: ما كنت مضيِّقًا عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه، قلت: -أي المؤلف - فعلى هذا قبر ابن مظعون وابن عوف رضي الله عنهما عند إبراهيم عليه السلام، فينبغي أن يزار هناك. وقبر فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في قبَّة في آخر البقيع. وروى عيسى بن عبد الله بن محمد عن أبيه عن جدِّه قال: دفن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فاطمة بنت أسد بن هاشم وكانت مهاجرة مبايعة بالروحاء مقابلها حمَّام أبي قطيفة. قلت: -أي: المؤلف - واليوم مقابلها نخل يعرف بالحمام، وقبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وعليه قبَّة عالية وهو قبل قبَّة فاطمة بنت أسد بقليل وحوله نخل. روى ابن شهاب أن عثمان رضي الله عنه لما قتل دفن في حشّ كوكب فلمَّا ملك معاوية رضي الله عنه واستعمل مروان على المدينة أدخل ذلك الحش في البقيع فدفن الناس حوله)، هذا نصُّ ما ذكر في مطبوعة كتاب ابن النجار، وإذا كان عثمان بن عفَّان قد دفن في حشّ كوكب بإجماع المؤرخين فما علاقة قبر فاطمة بنت أسد بقبره؟؟!!!.

وقد نشر أحد الفضلاء خارطة للبقيع بين فيها بعض قبور أهل البيت وقبور بعض الصحابة إلا أنه لم يشر فيها إلى موقع ضريح الزهراء عليها السلام، ولك أن تنظر فيها وفي الخارطة التي نشرها مؤلفا كتاب بقيع الغرقد للمقارنة.

تلك أهم الروايات التي وقفت عليها بشأن قبر الزهراء سلام الله عليها، ولعله يرجح عندك ما رجح عندي في أن تلك البقعة المباركة التي استطاعت

أن تحمل أجساد كلٌّ أولئك العظماء رضوان الله عليهم احتملت أيضًا جسد الزهراء سلام الله عليها وعلى ذريتها الطاهرة.

كان الإمام عليه السلام يرى فيها وجه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعد رحيله فيهون بعض حزنه عليه، ولكنها يوم رحلت تركت في نفسه شرخًا لم يندمل فقد رأى فيه وداعًا حقيقيًّا لأخيه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكان مناسبة عبر فيها عن عميق حزنه ولوعته وإحساسه بالحيف، فوقف على قبر أبيها يبثُّه شكواه.

مصادر الكتاب ومراجعه

- الأحنف بن قيس، كتاب قيد الطبع للدكتور صلاح مهدي الفرطوسي.
- الإرشاد، الشيخ المفيد «ت ٤١٣هـ»، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، ط٢، بيروت ١٩٩٣م.
- الاستيعاب، ابن عبد البر «ت ٤٦٣هـ»، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.
- أسد الغابة، ابن الأثير «ت ٤٦٣هـ»، دار الفكر، بيروت ١٩٥٥م.
- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة ٢٠٠٤م.
- الإفصاح عن أحوال رواة الصحاح، الشيخ محمد حسن المظفر «ت ١٣٧٥هـ»، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة ستارة، قم ١٤٢٦هـ.
- الاكتفاء بما روي في أصحاب الكساء، تلخيص وتعقيب محمد حسين الحسيني الجلالي، دار كنان للطباعة والنشر، ط٤، دمشق ٢٠٠١م.
- الأمالي، الشيخ الطوسي «ت ٤٦٠هـ»، دار الثقافة، قم ١٤١٤هـ.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة «ت ٢٨٦هـ»، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٧م.
- انساب الأشراف، البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، دار المعارف، ومؤسسة الأعلمي، بيروت.
- البحار، المجلسي «ت ١١١١هـ»، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٣م.

- البداية والنهاية، ابن كثير «ت ٧٧٤هـ»، مكتبة المعارف، بيروت.
- بقيع الغرقد، المهندس حاتم عمر طه والدكتور محمد أنور بكري، مكتبة الحلبي، المدينة المنورة ٢٠٠٤ م.
- تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكاتب العربي، بيروت١٩٩٧م.
- تاريخ الطبري، الطبري «ت ٣١٠هـ»، طبعة دار الكتب العلمية، وطبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- تاريخ المدينة المنورة، ابن النجار «ت ٦٤٣هـ»، تحقيق عبد الرزاق المهدي، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة ٢٠٠٣م.
- تاريخ المدينة المنورة، ابن شبَّة النميري البصري تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم ١٤١٠هـ.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر « ت ٥٧١هـ» ،مجلد ٦٧ ،تحقيق سكينة الشهابي، مطبوعات مجمع دمشق ٢٠٠٦م.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر «ج ١ ، ٣ »، نشر دار الفكر، بيروت.
- تاريخ مواليد ووفيات أهل البيت، ابن الخشاب (٥٦٧)، نشرته مؤسسة أهل البيت.
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي « ت ٢٩٢هـ» تحقيق عبد الأمر مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٣م.
- ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠م.

- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق ابن عساكر، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، ط٢، بيروت ١٩٧٨م.
- تحية القاري لصحيح البخاري، الشيخ محمد علي عز الدين، تحقيق محمد سعيد الطريحي، دار المرتضى بيروت ٢٠٠٣ م.
- التنبيه والإشراف، المسعودي، دار الصعب، بيروت
- تنقيح المقال في علم الرجال، الشيخ عبد الله المامقاني، تحقيق الشيخ محيي الدين المامقاني، مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، قم ١٤٢٣ هـ.
- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق الشيخ محمد جواد الفقيه، دار الأضواء، ط ٢، بيروت ١٩٩٢م.
- حلية الأوفياء وطبقات الأصفياء، أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني «ت ٤٣٠هـ»، نشر دار الكاتب العربي بيروت.
- حياة أمير المؤمنين، محمد صادق الصدر، دار الرافدين، بيروت٢٠٠٤م
- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، النسائي « ت ٣٠٣هـ»، تحقيق محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة، العراق.
- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين الطبري، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- الرسائل العشر، السيد علي الحسيني الميلاني، مطبعة ظهور قم ٢٣٢٦م.
- سنن الترمذي، الترمذي « ٢٧٩هـ»، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٩٨٠م.
- السنن الكبرى بن ماجة بشرح السندي، ابن ماجة «ت ٢٧٥ هـ»، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٧.

- السنن الكبرى، النسائي «ت ٢٧٥هـ» تحقيق د.عبد الغفار سليمان، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١م.
- السيرة النبوية، ابن هشام «ت ٢١٨هـ»، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى «ت ٤٣٦هـ»، تحقيق السيد عبد الزهراء الحسيني، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران ١٩٨٦م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد «ت ٦٥٦هـ»، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٩٥م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج «ت ٢١٦هـ» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح البخاري، البخاري، دار الفكر، بيروت ١٩٨١م.
- صحيفة الإمام الرضا، الرضا عليه السلام «ت ٢٠٣هـ»، تحقيق محمد مهدي نجف، مؤسسة طبع ونشر الآستانة الرضوية ١٤٠٦هـ
- الطبقات الكبرى، ابن سعد «ت ٢٣٠هـ» دار صادر، بيروت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه « ت ٣٢٨هـ»، تحقيق أحمد أمين وآخرين، دار الكاتب العربي للنشر، بيروت.
- علي إمام المتقين، عبد الرحمن الشرقاوي، الناشر إبراهيم الحاج أرزوقي، لندن.
- علي بن أبي طالب وأسرته رضي الله عنهم، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م.
- علي المرتضى حسين الشاكري، نشر الهادي، قم ١٤١٥هـ.

- عيون الأخبار، ابن قتيبة «ت ٢٧٦هـ»، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- فاطمة الزهراء، حسين الشاكري، نشر الهادي، قم، ١٤١٥ هـ.
- فاطمة الزهراء أم أبيها، السيد فاضل الحسيني الميلاني، مؤسسة البلاغ، طبعة ٩ ، بيروت ٢٠٠٣ م.
- فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أحمد بن حنبل«ت ٢٤١هـ» تحقيق حسن حميد السنيد، نشر المجمع العالمي لأهل البيت ١٤٢٥هـ.
- الكافي، الكليني « ت ٣٢٩هـ»، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ .
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير «ت٦٣٠هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الفتح الأردبيلي (٦٩٣هـ)، دار الأضواء، ط٢ ، بيروت ١٩٨٥م.
- الكوكب الدرّي، حاتم عمر طه، مطبعة طيبة للطباعة والتغليف، المدينة المنورة ٢٠٠٥م.
- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت.
- المسائل السروية، الشيخ المفيد (ت ٤١٣)، تحقيق صاحب عبد الحميد، ١٤١٢هـ.
- المستدرك. الحاكم النيسابوري « ت ٤٠٥هـ»، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- مسند أحمد. ترتيب أحمد عبد الرحمن البناء، دار الشهاب، القاهرة.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل « ت٢ ٢٤٢هـ»، دار صادر، بيروت.

- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر « ٨٥٢هـ»، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار المعرفة، بيروت.
- المعارف، ابن قتيبة «ت ٢٨٦هـ»، تحقيق ثروة عكاشة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نشرته بالأوفست مكتبة الحيدرية ١٤٢٧هـ.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي «ت ٤٣٦ هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
- المغازي، الواقدي « ت ٢٠٧هـ»، تحقيق مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت ١٩٨٩م.
- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني « ت ٣٥٦هـ»، تحقيق أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت ١٩٩٨م.
- مناقب آل أبي طالب، ابن شهراشوب (ت٥٨٨هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٥٦م.
- مناقب علي والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء، فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٣م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي العصر النبوي، العهد المكي، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي ١٤١٧هـ.
- موسوعة التاريخ الإسلامي العصر النبوي، العهد المدني(١)، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، قم ١٤٢٦ هـ.
- موسوعة التاريخ الإسلامي العصر النبوي، العهد المدني(٢)، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي، ط(٢)، قم ١٤٢٦هـ.
- موسوعة التاريخ الإسلامي، الجزء الرابع، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي، قم ١٤٢٦هـ.

- نقد الرجال، السيد مصطفى بن الحسين التفريشي، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة ستارة، قم ١٤١٨هـ.
- نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد عبده، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٦م.

الفهرس

المقدّمة ٥

التمهيد الزهراء بين أخوتها ٩

إرادة الله ٢١

بشارة الله ٢٥

يوم احتفت السماء بمولدها ٢٥

من أسباب الاختلاف في مولد البتول ٢٦

في أحضان النبوة ٣٣

نطفة من ثمار الجنة ٣٧

ما قبل الحصار وبعده ٤١

السيدة التي ما أبدله الله بخير منها ٤٤

من أوسمة البتول ٤٧

يا أهل الجمع غضّوا أبصاركم حتى تمرَّ فاطمة بنت رسول الله ٤٧

يوم فكّر المرتضى بالزواج ٥٥

«ما زوّجتك إلاّ بأمر السماء» ٥٧

أهازيج الفرح ٦١

مهر الزهراء ٦٣

أشهر جهاز في الإسلام ٦٧

ما بين الإملاك والزفاف ٧١
«هي أحبُّ إليَّ منك وأنت أعزُّ عليَّ منها» ٧١
اليوم الموعود ٧٤
الروايات عن أسماء بنت عميس ٧٥
غياب فاطمة أم الإمام من مشاهد العقد والزفاف ٧٨
الزهراء في بيت علي ٨١
حكايات عن الدفء والإيثار ٨٣
أهل البيت ٩٧
من قالات أعداء أهل البيت ١٠١
حكاية خطبة ابنة أبي جهل ١٠٧
بيت الأحزان ١٣١
قبر الزهراء ١٤٧
مصادر الكتاب ومراجعه ١٧٦

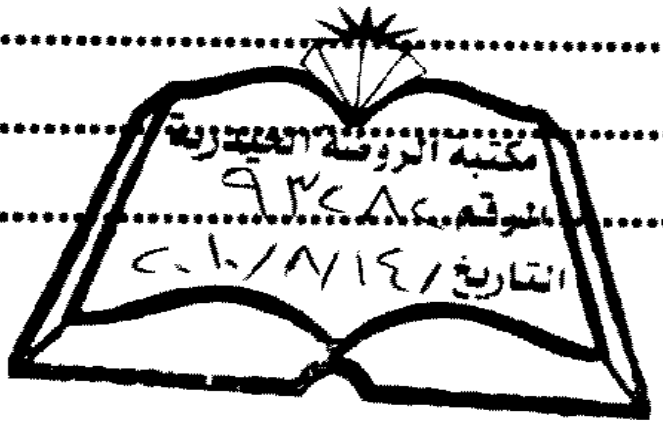

- د. صلاح مهدي الفرطوسي.
- ولد في النجف الأشرف / العراق سنة ١٩٤٦ .
- دكتوراه في اللغة العربية - جامعة بغداد سنة ١٩٧٩ .
- أستاذ في جامعات: بغداد، محمد بن عبد الله بالمغرب، صنعاء، السابع من أبريل بليبيا، الإسلامية بالنيجر، سراييفو، روتردام الإسلامية بهولندا.
- عُيّن خبيراً للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ١٩٩٥-٢٠٠١.
- اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عن العراق سنة ٢٠٠٧.
- رئيس مجلس أمناء الجامعة الحرة / هولندا.
- صدرت له عشرات الدراسات والمؤلفات والتحقيقات منها: مختصر العين للزبيدي، والمثلث لابن السيد البطليوسي، والمهذب في علم التصريف.